الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين- سطيف -

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم الفلسفة

مطبوعة الدعم في مقياس الفكر الجزائري

موجهة لأقسام الماستر السنة الأولى

من إعداد الأستاذة عميرة لطيفة

السنة الجامعية : 2018-2019

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين- سطيف -

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم الفلسفة

مطبوعة الدعم في مقياس الفكر الجزائري

موجهة لأقسام الماستر السنة الأولى

مـــــقـدمة:

هذه المطبوعة عبارة عن سلسلة من المحاضرات الموجهة لطلبة السنة الأولى ماستر - ل م د- تخصص فلسفة ،حول مقياس الفكر الجزائري، وهي ثمرة سنوات عديدة من التدريس لهذه المادة، تهدف أولا لأن تكون وسيلة عمل استكشافية للذين يريدون معرفة الثقافة الجزائرية ومميزاتها ودراسة الفكر الجزائري القديم والحديث والمعاصر، و ذلك من خلال دراستنا لأهم الأفكار و الرؤى التي جاءت بها هاته الشخصيات الجزائرية نحو عبد الرحمان الثعالبي وحمدان خوجة والأمير عبد القادر ومحمد ابن أبي شنب وأحمد شريف السنوسي و مصطفى الكمال بن الخوجة و المجاوي وعبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي و مالك بن نبي وغيرهم ؛ و تدور الأفكار التي تداولها أغلبهم على فكرة النهوض و الإصلاح و التجديد في الفكر الإسلامي وفلسفة الحضارة والتاريخ والتربية و التعليم

و قد تناولنا فيه المحاور الأساسية التالية:

1أعلام النهضة في العالم العربي الإسلامي.

2 أسباب تخلف العالم العربي الإسلامي وهاجس النهوض لدى زعماء الإصلاح

3 مقومات النهوض عند رواد النهضة الجزائريين.

4 الإصلاح الديني والدعوة إلى التجديد ومحاربة الجمود.

5التصوف والطرقية ومآخذ العلماء على الطرقيين.

7 مكانة اللغة العربية عند زعماء الإصلاح في الجزائر ومحنة اللغة العربية إبّان الحقبة الاستعمارية

8 التربية والتعليم

9 أساليب فرنسا في القضاء على الذاكرة التاريخية للجزائريين واهتمام العلماء بالتاريخ الوطني.

10 موقف العلماء الجزائريين من دعاة التجنيس.

11 قضية المرأة الجزائرية وترقيتها في الخطاب النهضوي الجزائري

12 تعليم المرأة الجزائرية ومعالجة مشاكلها الاجتماعية.

وقد اعتمدنا في تدريسنا لهذا المقياس و في كتابتنا لهذه المطبوعة العديد من المراجع المتنوعة ذات الصلة بمحاور المقياس وهي باللغة العربية: الحركة الوطنية الجزائرية، وكتاب تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله، وكتاب عبد الحميد بن باديس، حياته وآثاره، وكتاب آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وكتاب عبد الله شريط، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، وكتاب عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية(1945/1931)، وكتاب المفكر الفلسطيني فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، وكذلك مؤلفات مالك بنبي و منها وجهة العالم الإسلامي ، في مهب المعركة، وشروط النهضة و غيرها من الكتب التاريخية و الفكرية، أما المراجع باللغة الفرنسية فهي كالتي:

1-Ali Merad, Le réformisme musulman en Algérie, 2- Aoudad, la naturalisation nous confère-t-elle le droit de cité ? 3-Ferhat Abbas

La France c’est moi, L’entente.**4**-Louis Rinne, Marabouts et khouan, étude sur l’Islam en Algérie. 5- Mohiédine Djender, Introduction à l'histoire d'Algérie. **6**-R.Zenati, le problème Algérien vu par un indigène, supplément l'A, F, mai 1938. 7- Sadek Sellam Hamouda Bensai, Islam de France. **8**-Saad Eddine Bencheneb, quelques historiens arabes modernes de l’Algérie, revue africaine n°91(1956).

كما أنّنا لم نكتف بتقديم المحاضرات، بل أشركنا الطلبة في العملية التدريسة من خلال قراءة في كتاب لأبرز أعلام الجزائر في العصر الحديث على سبيل المثال لا الحصر : كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل للأمير عبد القادر الجزائري، الجواهر الحسان لعبد الرحمن الثعالبي، الإكتراث في حقوق الإناث لابن الخوجة ، إرشاد المتعلمين لعبد القادر المجاوي، مجالس التذكير لعبد الحميد بن باديس، وعيون البصائر للبشير الإبراهيي و غيرها لكُتاب محدثين ومعاصرين.

وفي الأخير أسال الله عز وجلّ أن يتقبل هذا العمل و يجعله مساهمة في إبراز مآثر علماء الإصلاح في الجزائر .

المحاضرة الأولى :أعلام النهضة في العالم العربي الإسلامي

من الواضح أن زعماء الإصلاح و النهصة في العالم الإسلامي منذ القرن التاسع عشر كان خطابهم يدور حول ضرورة " الوعي بالهوّة الحضارية التي تفصل بين ديار الإسلام والغرب، فعمدوا لى إصلاح ما فسد، و ترتيب ما تبعثر، و بحث ما اندثر حتى تستعيد ديار الإسلام نهضتها"[1]

لقد كان هناك شعور لدى الطبقة المثقفة عموما و عند علماء الإصلاح خصوصا بأنّ ثمة همّا مشتركا و داءً عميقا تعاني منه الأمة العربية الإسلامية ، و المتمثل في داء التقهقر و الإنحطاط ، ناهيك عن سبق الغرب لعالم العرب و الإسلام بل و تهجمه عليه بقصد تمزيقه و إبادتهِ ، إن هذا الهّم معادل تمامًا للرغبة في التقدم و في قطع المسافة التي تفصل العالم العربي الإسلامي المقهور عن العالم الغربي القاهر ،و ربما يرجع هذا الهاجس القوي إلى زمنٍ بعيدٍ جدا ، إلى زمن ابن خلدون ثم إلى الاتصالات الأولى بالغرب و إلى الإنطباعات التي تركتها هذه الاتصالات لدى مفكرين من أمثال الطهطاوي و خير الدين التونسي[2].

لقد كانت قضية الإصلاح و الخروج من الواقع المرير ، واقع الإستعمار و التجزئة ، و الضعف و الوهن أو قُل واقع التخلف ، كانت هي القضية الجوهرية المشتركة بين جميع التيارات الفكرية و الثقافية على إختلاف مبادئها و مشاربها في العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث و المعاصر.فقد كانت مشكلة النهوض و سؤال التقدم تؤرق أذهان مفكري الإسلام و قلوبهم و تدفعهم بإستمرار إلى بيان حدود هذا التقدم المطلوب[3] .

---

[1] - مهدي مبروك، هل نحن أمّة؟، دار البراق للنشر، تونس،1989، ص13.

[2] – فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، مرجع سابق ن ص 184.

[3] – المرجع نفسه ، ص 185

لقد كان أمرا مفروغا منه منذ البداية ، أن الأسلام مرادف للتمدن و التقدم و الترقي ، و أنّ عملية تجاوز الإنحطاط و التأخر باتجاه التقدم لا يمكن ان تتم إلا من خلال المعطيات الأساسية للإسلام نفسه،و قد مثل هذا إجماع مفكرين كُثر ،ظهروا في جميع أقطار العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث ،منذ الطهطاوي و إلى غاية منتصف القرن العشرين على أقل تقدير، فوجودهم النشِط يمتد من بداية القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين ، و معنى ذلك أن بعضهم قد عاش في العقد العثماني بمختلف مراحله المتأخرة و بعضهم في ظل الاحتلال الغربي البريطاني و الفرنسي ، كما أن هؤلاء المفكرين ينتمون كما هو واضح و جلي إلى أقطار عربية متفاوتة في درجة تطورها الاجتماعي و الثقافي و السياسي ، بل تبدو بعض الأقطار أحيانا في عزلة تامة عن بعضها الآخر (المشرق و المغرب العربي) إلا أنه و بالرغم من هذا الإختلاف و التفاوت يظل هؤلاء جميعا ينتمون إلى أفُقٍ روحي متجانس في جوهره ،و أن الأصول التي يستقون منها و يبنون عليها منتجاتهم الفكرية واحدةٌ، كما أن هاجسهم و تطلعهم العام واحد، أما الذي يتباين و يختلف فهو الظروف الزمانية و الشروط الموضوعية التي يقف أمامها هذا المفكر أو ذاك ، و هي التي تضغط بدورها على المفكر فتجعله يرى أساس الحل للمشكلة المطروحة في هذا الجانب أو ذاك من مجمل جوانب التصور الإسلامي العام ، فيجعله مرتكزاً لتصوراته و عصبا لنشاطه الإصلاحي[4] .

فقد كان " على مفكر النهضة -كما قال علال الفاسي - أن يتناول بالنظر مجموع المسائل التي لها علاقة بقضية النهوض بالأمّة ، فلا يغفل عن ناحية منها و لا يعير التفاته الكامل لأي جانب منها دون الآخر حتى لا يجد نفسه أمام حالة من عدم التوازن الاجتماعي . على مفكر النهضة أن يحيط تفكيره بوضوح كامل بكل العناصر الروحية و الاجتماعية و

[4] – المرجع نفسه ،ص 188

الاقتصادية و السياسية و القومية ، و أن ينظر إلى كل واحدة منها مفصلة إلى أجزائها المتعددة ،و إلى غصون تلك الأجزاء المتفرعة ، و أن ينظر إلى مجموعها كتركيب لابد منه لتحقيق المثل الأعلى الذي نصبو إليه ، ثمّ إلى علاقة كل واحد منها ببعضها و مكانه في الانسجام الكامل لمجموع تلك العناصر " [5]

و قد لاحظ العديد من هؤلاء المصلحين أنّ الفكر التراثي العربي الإسلامي يحوي الغثّ كما يحوي السمين ،

و أنّ بين نصوص التراث ما هو غير صحيح و لا معقول ، و لا منطبق على القرآن و السنة النبوية الصحيحة فوجب تمحيص ذلك و وزنه بميزان و طبائع العمران التي أشار إليها ابن خلدون خاصة .

فما من أحد من الناس إلا هو "كائن تاريخي" و يمكن القول أيضًا "كائن ثقافي" ، و كل كائن تاريخي أو ثقافي هو بالضرورة تراث مختزل ينمو باستمرار ، و عناصر هذا التراث تجتمع لديه بما يتمثله و يختاره و يقبله و يعرفه أو يكتشف حقيقته و يرغب فيه و يريده و يخترق مخيلته و حافظته و ذاكرته و حساسيته الجمالية و حسه الأخلاقي ، و يستحسنه و يرى المنفعة فيه [6]. فلابد من فهم نصوص التراث فهمًا صحيحًا يُراعي فيه قوانين اللغة و قواعد بلاغتها ويُتحقق إذا ما كانت هذه النّصوص مطابقة للكتاب و السنّة، ثم التصريح بما تم التوصل اليه سواء أوافق رأى الأوائل أو لم يوافقهم[7]. فلم يبُنَ الإصلاح الديني على تمييز نصوص التراث

[5]- علال الفاسي ، النّقد الذّاتي ، المطبعة العالمية ،القاهرة، 1952 ، ص7 – 10

[6] – فهمي جدعان ، الطريق إلى المتقبل ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1، 1996، ص 43

[7] – عبد القادر المغربي ، جمال الدين الأفغاني ، أحاديث و ذكريات ، القاهرة ،ص 44.

و" الحرص على فهمها فهمًا حرًّا لحسب، و إنّما أيضًا على إطراح الباطل الدخيل عليها و الجهر بذلك كله من دون جمجمة في قول أو تقية من ذي صول "[8]

لقد ولدت هذه النهضة بحسب فهمي جدعان في لحظتين متتاليتين ، لم تؤت الأولى منهما ثمارها على الفور و إنما انتظرت قدوم اللحظة الثانية لتنظَّم إليها و تعمل معها .اللحظة الأولى جاءت مع ابن خلدون ،أما اللحظة الثانية ، فهي التي أنضجت هذه النهضة ووجهت تشكيلها على النحو العميق الذي شهده مطلع القرن التاسع عشر ؛ أما النهضة التي جسدها ابن خلدون فقد تمثلت في ثلاثة إنجازات عميقة :

1- الأولى : و عيه لحادثة الانهيار و الأفول و تحليله لها تحليلا عمليا دقيقا .
2- الثانية : استجماعه لمادة التراث بجملته و استذكاره لها على نحو منهجي منظم من شأنه أن ييسر أمر وعيه و اِستعابه و تمثله و استخدامه .
3- الثالثة : تجاوزه للتراث التاريخ باكتشاف علمه الجديد ، علم العمران البشري بأدوات العلم و العقل،فاتحًا بذلك الطريق أمام آفاق علمية جديدة ستولد منها علوم الحداثة الإنسانية[9].

لقد كان ابن خلدون متقدما على عصره بكثير ، فهو الذي آمن بشكل كبير بقدرات العقل الموضوعي الانتقادي على فهم التاريخ الواقعي و استشراف بناء العمران البشري على أسس علمية خالصة تتوسل بالعقل الموضوعي أداة أولى للفهم و التحليل الواقعيين. لم يستجب لفكر ابن خلدون من بين الذين تلوه مباشرة إلا عددا قليلا من المفكرين ، و لم يُنتفع بهذا الفكر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حين صحا العالم العربي الإسلامي على الحداثة الغربية و على الهوة التي تفصله عن هذه الواقعة ، فلجأ

[8] – المرجع نفسه ، ص 45.
[9] – فهمي جدعان، الطريق إلى المتقبل ، مرجع سابق، ص 141

مفكرو تلك الحقبة ، من بين الأمور التي لجؤوا إليها ، إلى فكر ابن خلدون ينشدون فيه أدوات و وسائل الفهم و التعليل، و اقتراح الحلول للمشكلة القائمة ، مشكلة الانحطاط و الأفول و كيف السبيل إلى النهوض و التقدم [10].كما أنه تشكل لدى هؤلاء المصلحين والمفكرين تركيبا جديدا يجمع إلى التراث الحي المتبقي من الحضارة العربية الإسلامية ما أنجبته النهضة الأُوروبية الحديثة [11].

لقد أخذ جُل المصلحين عن رفاعة رافع الطهطاوي و خير الدين التونسي ، توجهاتهما الأساسية و التي لم تكترث أبدا لمسألة القطيعة مع التراث ، فقد اعتقد هذان المفكران أن العمران الإسلامي الكلاسيكي يوافق ما أنتجته النهضة الأوروبية الحديثة في قيامها على العقل و العلم و الإتقان في العمل و الحرية و العدل و المساواة و الفاعلية الصنعية . بل اعتقدا أن جل هذه القيم مستقاة من الحضارة الإسلامية ،أصولا و فروعا ، إلا أن الحضارة الإسلامية تتميز عن النهضة الغربية الحديثة في تعلقها بالإيمان و الأخلاق الدينية التيي أدار الغرب لهما ظهره بشكل صريح، إلا أن هذين المفكرين يدركان جيدا أن الحداثة الغربية قد تجاوزت التراث الإسلامي القديم بشكل كبير ،و هو الأمر الذي يحتم على العرب و المسلمين أن يأخذوا بأسباب هذا التقدم الحديث[12] .

[10]- المرجع نفسه ، ص 142

[11] - المرجع نفسه، ص143

[12]- المرجع نفسه ، ص 145

المحاضرة الثانية: أسباب تخلف العالم العربي الإسلامي وهاجس النهوض لدى زعماء الإصلاح

لقد اعتبر عبدالحميد بن باديس أنّ "أوّل من نادى بالإصلاح الديني علماً وعملاً، نداءً سمعه العالم الإسلامي كلّه في عصرنا هذا هو الأستاذ الإمام محمد عبده، وأوّل من قام بخدمته نشرة إسلامية عالمية هو تلميذه حجّة الإسلام السيّد رشيد رضا صاحب المنار...".[13]

كما اعتبر مصر مبعث الدعوة الإصلاحية رغم أنّها كانت بيئة البدع ووكر الضلالات والانحرافات الاعتقادية والعملية من يوم أن انتصبت فيها الدولة الفاطمية، فرسخت فيها البدع الطرقية والتي حمتها بعد ذلك الحكومات المصرية بموافقة غالبية مشايخ الأزهر إلا قليلاً منهم وذلك بسكوتهم ومشاركتهم الفعلية والقولية[14]

إلاّ أنّه إذا كانت مصر هي مركز الإصلاح والنهضة الحديثة فإنّه لا يمكن اعتبار محمد عبده وتلميذه السيّد رضا أوّل المصلحين، برغم ما قدّماه من جهود وأعمال جبارة وذات فعالية في الحركة الإصلاحية. فلا شك أنّ الشيخ الإمام عبدالحميد بن باديس على معرفة تامّة بالشيخ محمد بن عبدالوهاب وجمال الدين الأفغاني والطهطاوي والثعالبي وخير الدين التونسي وغيرهم ممن عاصرهم من رجالات الإصلاح.ربما يمكن تفسير قول الإمام بن باديس أنّ فاعلية الإصلاح الإسلامي لم تكن إلاّ على يد محمد عبده ورشيد رضا، وأنّهما أقرب إلى نهجه في التفكير الإحيائي. والحقيقة أنّ كلّ الذين جاؤوا قبل محمد عبده لم يكونوا أقلّ إنجازاً ولا أقل أثراً منه سواء على المستوى الفكري-النظري والاشتغال العقدي أو على المستوى السياسي والاجتماعي.

---

[13] ابن باديس، عبدالحميد، **حياته وآثاره**، تحقيق وجمع عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي ، لبنان،ط1، 1983، ج 3، ص 66.

[14] المرجع نفسه، ص 66.

فالحركة الوهابية هي حركة إصلاح في الإسلام بحسب تعبير ابن باديس حيث ترجع هذه الحركة الإحيائية إلى "العلاّمة النجدي العظيم الذي عاش في بداية القرن 18، وترمي هذه الحركة إلى تطهير الإسلام من جميع البدع والخرافات التي لصقت به مع مرّ الزمن، والسمو به عن عبادة الأولياء"[15].

فالمبدأ الذي تقوم عليه الحركة الإصلاحية السلفية الوهابية متمثّل في أنّ المؤمن يمثّل البساطة والنظام، فكانت تلك الحركة بذلك من أشدّ طوائف الإسلام[16] إنّ هذا التوصيف الباديسي للوهابية يكشف لنا اختلاف ابن باديس مع الحركة السلفية الوهابية. ذلك أنّ المجتمع العربي الإسلامي أعقد بكثير مما كان يعتقد الشيخ محمد ابن عبدالوهاب، لقد عانى هذا المجتمع وهذه الأمّة منذ أكثر من قرنين من مخاض عسير لم تتوضح نتائجه حتى عصرنا الحالي.

فالمجتمع العربي الإسلامي المتقدم لم يولد بعد برغم الجهود الجبارة التي بذلها الروّاد الأوائل لعصر النهضة ومن تلاهم من الجيل الثاني والثالث، وترجع أسباب هذه المعاناة إلى طبيعة التحدّيات أو قل الابتلاءات الداخلية والخارجية وإلى الإحباطات الكثيرة التي واجهتها الأمّة العربية الإسلامية في تاريخها الحديث والمعاصر، مما أدّى إلى نشوء تيارات فكرية ودينية وسياسية مختلفة الوسائل والأهداف لمواجهة تلك الابتلاءات والتحديات والردّ عليها.

فلم تكن إذن قضية تصحيح العقيدة عن طريق محاربة البدع والخرافات، وزيارة القبور والأضرحة كما ظنّ محمد بن عبدالوهاب وحسب، بل كانت التحديات أقوى وأصعب وأعقد حيث يتشابك الديني والسياسي، ويتداخل المعرفي والتربوي والأخلاقي،

[15] ابن باديس، حياته وآثاره، ج 4، ص 236.
[16] المرجع نفسه، ص 23.

ويمتزج العقدي والعسكري. في هذه الأثناء كان السؤال الذي طُرح بإلحاح هو في كيفية الخروج والخلاص من براثن التخلف والتقهقر الذي يعاني منه العرب والمسلمون في كافة أوطانهم. ثم ما الوسائل والسبل الناجعة والفعالة لمواجهة تحديات الغرب والاستعمار الأوروبي؟

منذ قرنين من الزمان، شعر الإنسان العربي والمسلم بجمود وركود الفكر وانحطاط في القيم والأخلاق وانتشار للجهل وتفشي الفقر وتسلّط الملوك والسلاطين.فبدأ بالنهوض من سباته العميق إثر اصطدامات متعدّدة بواقعه المرير، وبحضارة الغرب وببطش جيوش الاستعمار، حضارة عالم جديد لا تمتّ إلى مفاهيمه عن الغيب والعالم والحياة في شيء، إنّه عالم الحداثة الغربية.

في خضم هذه التحديات كان رافع رفاعة الطهطاوي شديد الوعي لقضية الأصالة والتحديث، والمتمثلة في تحديث مصر لتكون منطلقاً لتحديث وتطوير الشرق الإسلامي كلّه عن طريق نور العقل وآفاق الفكر. بدون أيّة عقدة دينية كانت أم تراثية، ذلك أنّ العقل والفكر أساسا الفقه الإسلامي بمعناه الواسع، قد أخذته أوروبا أصلاً عن شعوب الشرق، من الصين، والهند، ومصر، وبلاد الرافدين والفرس قديماً، ومن الغرب والمسلمين في القرون الوسطى الأوروبية.

هذا هو الأساس الذي انطلق منه الطهطاوي في دعوته إلى التفاعل الحر والخلاّق مع حضارة الغرب ونظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بدون خوف وعقدة نفس لأنّها أي هذه الحضارة "المغناطيس الذي يجلب المنافع، ولأنّ مخالطة

الأغراب، لا سيما إذا كانوا من أولى الألباب تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب"[17] .

لقد تمحور العمل الفكري و السياسي الإسلامي خلال نصف القرن أنذاك حول فكرتين أساسيتين ، قدّم أولاهما الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ، و قدم الثانية الوزير و الصدر الأعظم خير الدين التونسي ، أمّا فكرة الطهطاوي التي عبّر عنها في أربعينات القرن التاسع عشر فهي فكرة المنافع العمومية أو الصالح العام ، و التي استأنس في صياغتها بما عرفه عن الدستور و النظام الفرنسي . فهي مسألة تجمع في سياقها القضيتين الدينية و السياسية ،و تتصل بفهم المجتمع و وعيه لذاته و دوره ، و الضّرورات أو المصالح أو الحاجيات المترتبة على ذلك . و قد رمى الطهطاوي من وراء ذلك في الأساس إلى إلى إعطاء إصلاحات " محمد علي " الدولتية - السياسية غطاءً و مشروعية، إلّا أنّ الفكرة نفسها كانت تملك حركية و آفاق كبيرة ،بحيث تجاوزت مشروع محمد علي الخاص بالدولة، لتدخل في قضايا الحرية و الدستور و بناء النّظام السياسي ، و قد ربطه الطهطاوي بقيم الشورة و العدل و الإحسان الإسلامية . و قد أدّت فكرة المصلحة (المنفعة) التي اشتغل عليها الطهطاوي إلى أمرين اثنين : الأول اعتبار المسار الاجتماعي - السياسي مسألة تتعلق بالمجتمع كله أي بالأمة، و عياً و ممارسةً ، الأمر الثاني هو اعتبار تحديد المصالح من اختصاصات أهل الحل و العقد بالمعنى الفقهي المعروف مع التعديلات الطارئة اجتهاديا ، و بذلك أعطى العلماء إلى جانب الأمراء و رجالات العمل العام ، مسؤوليات وصلت المجال الديني بالمجال السياسي وصلاً محكماً[18].

---

[17] الطهطاوي رافع رفاعة، مناهج الألباب المصرية، ضمن الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة،، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان،ط1، 1974، ج 1، ص 398.

[18] رضوان السيد ، سياسات الإسلام المعاصر ، مراجعات و متابعات ، مرجع سابق ، ص19 و 20 .

أمّا الفكرة الثانية التي قدّمها خير الدين التونسي في الإصلاح الإسلامي ، فهي فكرة " التنظيمات " و قد كان يعني بها المؤسسة ، و هو الامر الذي دعا إليه و حاول ممارسته عند استلامه للوزارة في تونس و لصدارته العظمى باسطنبول . فقد أراد ان يقيم دولة المؤسسات أو قُل نظام المؤسسات ،محاولا بذلك إبعاد السلطة و العمل الإداري عن الشخصنة و العشوائية و الارتجالية ، وحفظا لاستمرارية الدولة و النظام و العمل العام . و واضح أنّ هذه الفكرة سياسية ،أفاد فيها أيضا من النظم السياسية الأوروبية التي يعرفها جيدا و قد ربطها بالدستور وببناء النظام السياسي ، إلّا انّ الطريف في هذه العملية هو محاولته الاستدلال على مشروعيّتها بأدلّة فقهيّة إسلامية أكثر تحديدا و ضبطا ممّا قام به الشيخ الطهطاوي . فقد اعتبر خير الدين التونسي أنّ التنظيمات من المصالح الضروريّة و أنّ المصالح معتبرة في الشريعة الإسلامية بدليل ما ذكر ابن القيّم الجوزية و آخرون من علماء الأصول . و أضاف أنّ المصلحة يتحقّق بها العدل و العدل من مقاصد الشريعة الأساسية بحسب ابن القيم كما جاء في كتابه " إعلام الموقعين عن رب العالمين" ، وكتابه الآخر " الطرق الحُكمية "[19].

إنّ فكرتا المنافع العمومية و التنظيمات سادتا الفكر الإسلامي فيما يتعلق بالإصلاح الديني و السياسي. وجاء تعميمهما بمقاصد الشريعة ليضع كل المؤسسات السياسية و الاجتماعية في باب الضّروريّات من أجل بقاء الدّين و المجتمع ، و بذلك اتخذت المسألتان السياسية و الدينيّة أبعادًا جديدة و خلاقة، وذات طابع بنائي و قد كانت لذلك آثاره في تطوّرات الفكر الإصلاحي ، و في مسارات علائق الدّولة بالدّين في عالم الإسلام. و لا شكّ أنّ تلك العلائق تحتل المنزلة الأولى في المسألة الثقافية في هذا العالم.[20] .

[19] المرجع نفسه ،ص21.

[20] المرجع نفسه ،ص 22.

لقد اعتمدت الإصلاحية الإسلامية فيما اعتمد في المشرق كما في المغرب على فكرة المصالح التي جرى تطويرها إلى منظومة من خلال إعادة اكتشاف مقاصد الشريعة ، حيث توصل الطهطاوي اعتمادًا عليها إلى فكرة المنافع العموميّة ، وتوصّل خير الدّين التونسي إلى فكرة التنظيمات ، وكان ذلك تجديدا معتبرا ، إلّا أنّه تعلّق في الأساس ببنية الدّولة ذاتها . غير أنّ فكرة " الجامعة الإسلامية " التي دعا إليها جمال الدّين الافغاني و ناضل في سبيلها عقودًا ،هي التي استقطبت جهود العديد من المفكّرين ونضالهم ، وقد اختلفت حولها آراؤهم و أفهامهم كما اختلفت حول شخصية جمال الدين الأفغاني نفسه . و لكن ما يبدو من كتابات الأفغاني القليلة و من سيرته النّضالية التحشيدية ، فإنّ هذه الفكرة تعني " التضامن الإسلامي " الواعي و اليقظ الذي يضع المسلمين في موقف واحد أو مترابط في مواجهة الهجمة الغربية من أجل الاستعمار و الهيمنة على العالم الإسلامي ؛ ويقوم التضامن المنشود بحسب الأفغاني على التّوحّد الذي تُحدثه العقيدة الواحدة اليقظة ، فالذي يجعل من هذا العالم الإسلامي ممكن التّوحّد و الاجتماع على موقف واحد هو تلك الثقافة الشاسعة و الغنيّة التي نجمت عن ذلك الدّين ،و يجب على شعوب العالم االإسلامي و الشرقي عموما أنْ تنهض في وجه الهيمنة مستعملة في ذلك كل إمكاناتها و بشكل جماعي[21] .

لقد أرجع السيّد جمال الدين الأفغاني أسباب فساد المجتمع الإسلامي وضعفه وانحطاطه إلى الجهل بتعاليم الدين الإسلامي الصحيحة عبر الأجيال ونتيجة سوء فهم جوهر الإسلام والعقيدة الإسلامية كما تضمنها القرآن والسنّة. وهذا هو السبب الأبرز، استبداد حكام أمّة الإسلام وتناحرهم وضعفهم مما أفسح في المجال أمام الغزاة الأوروبيين للتسلل إلى أرض الإسلام والسيطرة على بلاد المسلمين وأوطانهم.

[21] المرجع نفسه ، ص22.

هذان من أهم وأخطر الآفات التي أصابت المسلمين وأردتهم أرضاً بحسب رأي جمال الدين الأفغاني.

أمّا الحلول التي قدّمها السيّد جمال الدين، ورأى فيها الدواء الناجع لهذه الحالة المرضية المستفحلة، فتكمن في الخطوات التالية:

أ- العودة إلى الإسلام الأوّل، الأصيل، أيام النبي محمد وخلفائه الراشدين.

ب- إصلاح الذات والنفس أوّلاً ذلك أنّ سنّة الله في الكون والأمم والشعوب هي أنّه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[22]

ج- إزالة الاستبداد السياسي بإزالة أسبابه وآثاره تماشياً مع تعاليم الإسلام ضدّ الظلم وإحقاق الحق وبسط العدل والحرية.

د- الوحدة الإسلامية، وحدة الأمّة الإسلامية بكلّ أجناسها وألوانها وأوطانها، فهي أمّة واحدة تحت راية الإسلام ﴿بالعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [23]وكلّ عمل سياسي إسلامي يجب أن يهدف بحسب جمال الدين الأفغاني، أولاً وقبل كلّ شيء على استرداد تلك الوحدة الدينية والسياسية الضائعة، ذلك لأنّ العالم الإسلامي لا يصمد أمام المد الأوروبي والغربي إلاّ بواسطة وحدة المسلمين والعرب.

وهذا هو مشروع جمال الدين الأفغاني الكبير "الوحدة الإسلامية". فالإصلاح عند الأفغاني إذن لا يقتصر على تطهير العقيدة الإسلامية من شوائب البدع وخرافات أصحاب الطرق وضلالات أصحاب الفرق كما اعتقد محمد بن عبد الوهاب، وحسب، بل مشروعه

[22] سورة الرعد، الآية 11.

[23] سورة البقرة، الآية 256.

الإصلاحي تجاوزه إلى إصلاح حياة المسلمين السياسية والاجتماعية والثقافية، انطلاقاً من إصلاح نفوسهم وإصلاح مفاهيمهم الدينية نفسها، والقضاء على الأسباب التي تحول بين المسلمين وبين مجاراة الحضارة الغربية والردّ على تحدياتها العلمية والسياسية والعسكرية.[24]

وإذا كان السيّد جمال الدين الأفغاني قد وضع الخطوط العريضة لعملية الإصلاح فإنّ صديقه وأخاه ورفيق دربه محمد عبده قد جسّد هذه الخطوط في معالم أربعة رئيسية للعملية الإصلاحية:[25]

- المعلم الأول: ترتكز هذه المرحلة على تحرير العقل من قيود التقليد.
- المعلم الثاني: الفهم السليم للدين والتديّن على طريقة السلف الصالح والاستناد على الفترة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين.
- المعلم الثالث: لا تعتبر السلطة النهائية في كلّ ما يتعلّق بالعقيدة والدين هي ملك لعلماء الدين، بل ترجع هذه السلطة إلى القرآن والسنّة وحدهما.
- المعلم الرابع: دراسة الحقائق الدينية ضمن موازين العقل البشري[26]

إنّ الإصلاح الذي أراده محمد عبده لم يكن يقف عند تنقية الدين من البدع والخرافات وحسب، بل كان يريد أن يذهب به أبعد من ذلك، أراده إصلاحاً يقوم على إصلاح العقل الإسلامي مستلهماً بذلك الإنجازات والفتوحات العقلية التي شهدها العصر الحديث[27]

---

[24] جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق وإعداد محمد عمارة، المؤسسة المصرية العامة، د. ت، ص 228.

[25] هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب، دار النهار، لبنان ، 1971، ص 58.

[26] محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1972، ج2، ص 318.

[27] محمد عبده، لأعمال الكاملة، ج 3، ص 314.

ويمكن تلخيص معالم الإصلاح عند الشيخ محمد عبده في تحرير الفكر من أسر التقليد وفهم الإسلام على أسس عقلية، وإعادة قراءة القرآن الكريم وتفسيره من جديد بتحديد معنى الإعجاز الحقيقي للقرآن وعدم حصر هذا الإعجاز في المجال اللغوي والبياني أو في المجال العلمي، ذلك أنّ القرآن الكريم كتاب الله يهدي النّاس إلى مجتمع أفضل وطريق سوي وخلق عظيم، وهذا هو مقصد القرآن وهدفه. أمّا ما جاء وراء هذا الجوهر الثمين من مباحث لغوية وعلمية وفقهية فإنّها مباحث تابعة له وخادمة له أو وسيلة لتحصيله[28] ثم يجب إعطاء الأولية للعقل في فهم الإسلام قرآناً وسنّةً، وعليه فلا يجب التمسّك بالتفاسير والتأويلات السابقة، ذلك أنّ السلف كانت لهم مفاهيمهم ومناهجهم الفكرية ومشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإشكالاتهم الكلامية والعقدية.

وليس مطلوباً من مسلم القرون الحديثة أن يقف عند هذه القراءات بل هو مطالب باستخدام معارفه ومكتسباته العلمية واللغوية الحديثة بالاستئناس بالسلف الصالح ومن علماء هذه الأمّة من جهة لفهم الجوانب اللغوية والتاريخية وأسباب النزول مستنداً في ذلك كلّه على مطالعة السيرة النبوية واقفاً عند الصحيح المنقول مبتعداً عن الضعيف والمبذول[29]

من جهة أخرى، اهتم محمد عبده بإصلاح اللغة العربية من حيث أساليبها وطرق تعليمها، فإنّ اللغة لم تستطع أن تواكب التطورات الفكرية والصحافية والسياسية، لهذا طرح محمد عبده إصلاح أساليب اللغة في التحرير والكتابة، سواء كان في المخاطبات الرسمية

[28] محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج4، ص 709/689.

[29] المرجع نفسه، ج 1، ص 589

بين الدواوين الحكومية ومصالحها، أو فيما يخصّ الصحافة والترجمات من اللغات الأخرى[30]

والسؤال الذي يُطرح بإلحاح هو: أين الإصلاح السياسي من فكر محمد عبده، رفيق جمال الدين الأفغاني رجل الإصلاح السياسي الأوّل؟

لقد خالف محمد عبده أخاه ورفيقه جمال الدين الأفغاني، فاعتبر أنّ الإصلاح السياسي مطلب (استراتيجي) بعيد المدى، أمّا الإصلاح الجوهري والضروري والطارئ هو إصلاح العقل والتعليم الذي هو أساس وقاعدة الإصلاح السياسي.

وقد توصّل الإمام محمد عبده إلى نتيجة مفادها أنّ العمل السياسي المباشر هو عمل مضيّع للوقت وللجهد والطاقات، فالعمل السياسي هو ثمرة تجنيها الأمم والأوطان من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال، فهذا الغراس هو الذي يجب أن يعنى به الآن وتبذل فيها الطاقات والأوقات[31].

كان لمحمد عبده، في واقع الأمر اتجاه متميز عن اتجاه جمال الدين الأفغاني فقد كانا متفقان في الغايات، إلاّ أنّهما مختلفان في الوسائل والمناهج اختلافاً جوهرياً: فالأفغاني كان يدعو إلى الثورة بينما محمد عبده كان يدعو إلى الإصلاح، فالأفغاني رجل الجماهير والخطابات والتجمعات، يدعو إلى الانتخابات التي تشارك فيها الجماهير، ثم يعتبر أن الحكم يرجع إلى الأمة وليس إلى الحكام، لقد كان الأفغاني يسخر من الذين يظنون أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد أو بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة، كما فعل الطهطاوي،

[30] المرجع نفسه، ج 2، ص 180.

[31] محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج2، ص 320/218

فإن هذا الأمر العظيم لا يقوم به إلاّ سلطان عظيم، قاهر يحمل الأمّة على ما تكره أزماناً، وليس عند الضعيف هذه السلطة التي تقهر فضلاً عن الثورة التي تلزم[32]

ثم إنّ الأمر الجلل حتى لو نفّذ بالتدرج وخلال مدة من الزمن، فكيف يتم نقله إلى الأمّة مع مراعاة النسبة بينه وبين مشارب الأمّة وطباعها. ألم ينقل العثمانيون والمصريون عن الغرب المدارس الحديثة والعلوم والصنائع والآداب وكل ما يسمى تمدناً، لكن هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الغرب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدّوا المنافذ والثغور؟ هل نالوا بهذه الإنجازات المنَعَة ما يدفع غارات الأعداء عنهم؟ هذا هو موقف السيّد جمال الدين الأفغاني من الحلول التي قدّمها بعض دعاة الإصلاح الذين سبقوه أو عاصروه.

أمّا محمد عبده، فقد اعتبر هذا الحلّ صعب المنال باعتبار أنّ الجماهير غير جاهزة لتتسلّم زمام أمرها، وتتسلّم زمام الحكم وتنظيم شؤونها كما هو الشأن في البلاد الديمقراطية، مفضلاً النخبة المثقفة والمستنيرة في هذه الأمّة لتكون في الصدارة في النهوض بهذه الأمّة، علمياً وثقافياً واقتصادياً ثم سياسياً، وبالتالي إزالة الاستبداد الذي تشكو منه الأمّة منذ قرون طوال.

فإزالة الطاغوت السياسي مرهون بالتربية والتعليم للطبقات الوسطى والدنيا في المجتمع الإسلامي، التي تقود الأمّة إلى برّ الأمان وسلطة القانون وبسط العدالة.

وقد كان الإمام محمد عبده يعتبر جمال الدين الأفغاني صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام والمسلمين أكبر فائدة. فعرض عليه الأمر بحيث يركزان هو والسيّد جمال الدين الأفغاني طاقاتهما في التعليم والتثقيف فينشأ مفكرون

[32] فهمي جدعان، أسس التقدّم عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص 158.

ومثقفون في أرجاء العالم الإسلامي، فجاء ردّ جمال الدين زاجراً قائلاً له: "إنّما أنت مثبِّط"[33]

كان هذا فراق بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في المنهج والوسائل، ثم جاء السيّد رشيد رضا صاحب مجلّة المنار التي مشت على خطى العروة الوثقى، إلاّ ما كان فيها من التوجه السياسي الذي يتعلّق بالمسألة المصرية والتحريض على الإنكليز باعتبار أن الظروف قد تغيّرت.

لقد وافقت المنار "العروة الوثقى"، في المسائل الاجتماعية وفي الأسس التي وضعها جمال الدين الأفغاني لمشروع الوحدة الإسلامية، إلاّ أنّ المنار أضافت بعض الأمور المتعلقة بالجزئيات مثل محاربة البدع والخرافات وتصحيح العقائد.

لقد كان السيّد رشيد رضا صاحب مشروع إصلاحي كبير شأنه شأن أستاذه ورفيقه محمد عبده، فهو يرى أنّ أهمّ أركان الإصلاح الإسلامي هو جمع كلمة المسلمين على عقيدة واحدة وأصول فكرية وأدبية واحدة وقانون شرعي واحد لا يحكم عليهم غيره في أي نوع من الأنواع، ولغة واحدة، ولا يتم ذلك إلا بإنشاء جمعية إسلامية تحت حماية الخليفة[34]،وترعى هذه الجمعية الإصلاح الديني والتربوي، فلا إصلاح سياسي مدني إلاّ بإصلاح ديني تربوي.

من جهة أخرى يرى السيّد رشيد رضا أنّ التقدّم والتخلّف يخضعان لقوانين طبيعية ذاتية خاصة بالأمم والشعوب والحضارات، ولا يرجعان إلى مجرد الانتماء إلى الدين، فالانتماء وحده إلى الإسلام لا يكفي إذا لم تأخذ الأمّة سنن الله في الكون والطبيعة، في الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً. والدين الإسلامي هو العنصر الأبرز في صعود الأمّة

[33] محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج 1، ص 682.

[34] فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص 270.

الإسلامية عندما تأخذ به وتحيا به بطريقة سليمة وصحيحة، أما عند التخلي عن الإسلام كما تخلى عنه المسلمون وتمسكوا بقشوره وركنوا إلى بعض التقاليد والعادات المنسوبة إلى الإسلام ظلماً، انحطوا وصاروا في مصاف الأمم المتخلفة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[35].

فالظلم والصلاح هما قانونا الترقي والانحطاط، والصلاح هو صلاح الفرد والمجتمع بعمارة الأرض وإدارتها ولا يتم ذلك إلا بالتعليم والتربية[36].

إنّ فكرة الجامعة الإسلامية عند السيّد رشيد رضا تتمحور بالدرجة الأولى حول الإصلاح الديني والاجتماعي مبتعداً نوعاً ما عن الطابع السياسي للجامعة كما فكر فيه جمال الدين الأفغاني، باعتبار أن العمل السياسي المباشر للجامعة ينطوي على محاذير كثيرة أقلها تحامل العالم الأوروبي على العالم الإسلامي وإثارة الضغينة عند الأقليات التي تعيش في كنف الدولة الإسلامية[37].

[35] سورة هود، الآية 117.

[36] المنار 1/ 31، ص 583 نقلاً عن: أسس التقدّم، ص 274.

[37] فهمي جدعان، أسس التقدّم عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص 275

المحاضرة الثالثة: مقومات النهوض عند رواد النهضة الجزائريين.

أمّا في الجزائر موطن ابن باديس و البشير الإبراهيمي ، فقد كان هناك علماء ومشايخ ومثقفون كثر عملوا على بعث النهضة، ونبذ التقليد ومحاربة البدع كالشيخ عبدالقادر المجاوي [38]الذي ألفّ العديد من الكتب التربوية ودعا إلى تعليم المرأة، ويعتبر المجاوي الذي كان أستاذ اللغة العربية والفقه الإسلامي والمثقف الذي يجمع بين الثقافة الإسلامية والثقافية الفرنسية، من المثقفين الذين لهم إطلاع واسع بالثقافة الإسلامية (الكلاسيكية) وخاصة فكر ابن تميمة، وقد كان له تلاميذ مميزون مثل الشيخ مصطفى بن الخوجة[39] والشيخ المولود بن موهوب[40] والشيخ حمدان الونيسي[41] أستاذ عبد الحميد بن

[38] الشيخ عبد القادر المجاوي: وُلد سنة 1848 وعاش للعلم والتعليم، فتميّز بغزارة علمه وتنوّع معارفه ومشاركته في كلّ فن بطرف، فكان دائرة المعارف، ساهم في الإصلاح الديني إذ قاوم البدع والضلالات، توفي في عام 1913 في مدينة قسنطينة تاركاً طائفة من المؤلفات، يبلغ عددها ثلاثة عشر كتاباً تدور موضوعاتها حول اللغة العربية وعلومها. أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 1992، ج2، ص 148.

[39] الشيخ مصطفى بن الخوجة: هو محمد بن مصطفى بن الخوجة، ولد سنة 1865م، لقّبه عمر راسم بأبي النهضة الجزائرية لأفكاره الواعية والمتسامحة حول الإسلام والعربية، حقّق ونشر مجموعة من كتب التراث العربي مثل تحقيقه لكتاب "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" للشيخ الثعالبي، اشتغل محرراً في الجريدة الرسمية "المبشّر". ثمّ عُيّن مدرّساً للتفسير والتوحيد والفقه والأدب العربي في مسجد سفير بالجزائر، وفته المنية 1915م. من أهم آثاره: – الاكتراث في حقوق الإناث. — اللباب في أحكام الزينة واللباس والحجاب. أولى فيهما اهتمامه الأكبر لنهضة المرأة الجزائرية ويرى أنّها الطريق السليم لإصلاح الجيل الجزائري الذي أصبح لا يعرف ثقافة آبائه وأجداده. أنظر عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، الجزائر ، ج4 ، 448 ، وأبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط1 ، 1998 ج 3، ص 83-88.

[40] وُلد ابن موهوب في قسنطينة سنة 1866 وكان مفتيّاً لقسنطينة لمدّة طويلة، وكان في نفس الوقت أستاذاً للفلسفة والعلوم الدينية والأدب العربي في المدرسة الجزائرية–الفرنسية لقسنطينة، دعا ابن موهوب إلى الإصلاح والتقدّم عن طريق التعليم والتسامح والعودة إلى الأصول ونبذ التعصّب، وهذا ما يجعله موضوعاً أو مقدّمة لحركة ابن باديس الإصلاحية، أيّ في الوقت الذي كان فيه ابن باديس ما يزال طالباً. أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج (2)، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط (4)، ص 150-180، 1992.

[41] ولد حمدان الونيسي بقسنطينة عام1856عُين مدرسا بالجامع الكبير سنة 1880م و عمره لا يتجاوز 25سنة لم يُرف عنه أي كتابات لالتزامه بالتعليم المسجدي، و حرصه على تخريج الطلاب و التأثي في الناس بالكلمة طَرد اليخ حمدان من منصبه سنة 1910 بسبب مشاكساته للاستعمار ، فهاجر إلى المدينة المنورة إلى أن توفته المنية في الحجاز ؛ أنظر أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1998،ج3،ص129-140.

باديس[42] وقد ألّف الشيخ عبد القادر المجاوي كتيّباً في علم الكلام كما اهتم بدراسة الأخلاق وعلم النّفس.

بالإضافة إلى الشيخ المجاوي كان هناك الشيخ أبو القاسم الحفناوي[43] صاحب كتاب "تعريف الخلف برجال السلف" الذي ضمّ فيه تراجم لعدد كبير من الشخصيات الجزائرية. كما كانت هناك شخصية ثقافية إصلاحية مهمّة في تاريخ الجزائر الثقافي الحديث والمتمثلة في الشيخ عبد الحليم بن سماية[44] أبرز دعاة الإصلاح في الجزائر في مطلع القرن العشرين، فقد كان على اتصال ومعرفة بالشيخ محمد عبده، حيث استقبله الشيخ عبدالحليم بن سماية في بيته عندما زار الجزائر[45].

كان ابن سماية أستاذاً في المدرسة الجزائرية- الفرنسية، والمدرسة الثعالبية حيث كان يدرّس طلاّبه كتب العقائد وعلم الكلام، وعلى رأسهم كتاب أبي حامد الغزالي"الاقتصاد في الاعتقاد"، و"رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده.

وإلى جانب العمل التربوي والدعوي الذي كان يقوم به، فقد شارك في عدة مؤتمرات فكرية وثقافية وعلى رأسها مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في الجزائر سنة 1905م.

---

[42] ابن باديس، حياته وآثاره، مقدمة عمار طالبي، ص 31/25 + الحركة الوطنية الجزائرية، أبو القاسم سعدالله ص 173.

[43] وُلد الشيخ الحفناوي بقرية "الديس" قرب مدينة بوسعادة سنة 1850، تعلّم النحو والصرف والعروض والفقه والتوحيد والمنطق والحساب على يد والده، ثم واصل تعليمه بالزوايا العلمية في كلّ من "طولقة" والعزوزية". سنة 1883 توجّه الحفناوي إلى الجزائر العاصمة، فعلم مدّة طويلة في قسم الترجمة والتحرير في الولاية العامّة الفرنسية حيث ساهم في تحرير جريدة "المبشّر" الناطقة باللغتين العربية والفرنسية، ثمّ درّس بالجامع الكبير بالعاصمة وأخيراً تولّى منصب الفتوى سنة 1936. توفي الشيخ الحفناوي بمسقط رأسه سنة 1942. أهم مؤلفاته موسوعته التاريخية "تعريف الخلف برجال السلف".أنظر تاريخ الجزائر العام ، مرجع سابق ،ج4 ،ص425 تاريخ الجزائر الثقافي، ج (3)، ص 88-93.

[44] ولد الشيخ عبد الحليم بن سماية في 15 تموز 1866 من أسرة علمية في الجزائر العاصمة، درس العلوم الشرعية والفرنسية في مدرسة الجزائر التي كان والده مدرساً فيها، أتقن اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية والعلوم الإسلامية. زار الشام في طريق عودته من الحجاز لأداء فريضة الحج، ومكث في تونس قصد الحصول على الإجازة من أحد علمائها، علّم الأستاذ ابن سماية جيلاً من طلاب العلم في المدرسة الثعالبية الرسمية بالعاصمة إلى جانب تدريسه للنحو والبلاغة والأدب العربي والتفسير وشرح الأحاديث في المسجد الجديد في الجزائر العاصمة، ووافته المنية سنة 1939. شارك ببحث "قيم الفلسفة الإسلامية" في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين في الجزائر عام 1905م، كما كانت له مشاركة في فن الموسيقى العربية وعت ذاكرته حظاً وافراً من التوشيحات الجزائرية. أنظر تاريخ الجزائر العام ، مرجع سابق ، ج4 ،ص401 و تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، (ص 93/ 96).

[45] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 174.

أما همزة الوصل بين الشيخ عبد الحميد بن باديس ورجال الإصلاح الجزائريين من قبله، فقد كان الشيخ مولود بن موهوب الذي اعتلى منصب الافتاء بمدينة قسنطينة إلى جانب مهمة التعليم، حيث كان أستاذاً للفلسفة والعلوم الإسلامية والأدب العربي في المدرسة الجزائرية-الفرنسية.

لقد كان ابن موهوب عالم دين واعٍ وذي سعة من العلم والفكر، كان يدعو للعودة إلى الأصول الإسلامية كشرط أساسي للنهوض، ثم التوسل بالطرق الحديثة في التعليم والتربية مدركاً أنّ تحرير الشعوب يتوقف على يقظتهم العلمية والعقلية، وعليه فإن أزمة الجزائر آنذاك هي قلّة المدارس والمعاهد. لقد كان الشيخ الجليل مقدمة لحركة النهضة البادسية وجمعية العلماء الجزائريين في قسنطينة والجزائر عامّة[46]

والجدير بالذكر هنا أنّه من الوسائل التي توسّل بها الإصلاحيون والمثقفون الجزائريون في عملية التوعية والتعليم ونشر أفكار الإصلاح هي إنشاء الجمعيات والنوادي والمنتديات الثقافية مثل "الجمعية التوفيقية"، " نادي التقدّم"، " نادي الشباب الجزائري"، " نادي الاتحاد" وغيرها من الجمعيات.

بالإضافة إلى ذلك، فلقد أدّت الصحف والجرائد دوراً بارزاً في نشر الوعي والثقافة الإسلامية في أوساط الشعب الجزائري برغم كل التعسّفات والأحكام الجائرة في حق أصحابها، ففي سنة 1911 أصدر عمر راسم[47] صحيفة "الجزائر" والتي صادرتها الحكومة الفرنسية بعد صدور عددين منها فقط[48]

---

[46] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 174/ 177.

[47] وُلد عمر راسم سنة 1883م بالجزائر العاصمة، التحق بالكتّاب في سن مبكرة لحفظ القرآن، فختمه وهو ابن السبع سنوات، اشتغل في مسجد "سفير" وعمره لم يتجاوز 12 سنة، وتلقى في هذا المسجد دروساً في النحو على يد الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة. دخل بعدها مدرسة الجزائر الشرعية الفرنسية "الثعالبية" إلاّ أنه لم يكمل تعليمه لظروف غامضة. اهتم بالحياة السياسية والثقافية، فعمل في مجال الصحافة، فكتب في الصحف التونسية: التقدّم،

في سنة 1913 أصدر عمر قدّور[49] صحيفة "الفاروق" وهي مجلة أسبوعية إسلامية وطنية تُعنى بالشأن الثقافي وكان شعارها بيت شعر يقول صاحبه:

قلمي لسان ثلاثة بفؤادي ديني ووجداني وحب بلادي

وفي السنة نفسها أي 1327/1913هـ، صدرت جريدة "ذو الفقار" لصاحبها عمر راسم تحت اسم مستعار هو ابن المنصور الصنهاجي.

أما بعد الحرب العالمية الأولى فقد زادت حركة الصحافة الجزائرية حيث كثر قراؤها، وكثر عددها، ولجأت مختلف التيارات الثقافية والسياسية للتعبير عن آرائها وأفكارها الدينية والسياسية عبر الصحف الداخلية منها والخارجية العربية والفرنسية[50].

إنّ الاتجاه الرّئيسي لدى التيار الإصلاحي المصري و المغاربي ظلّ يقدم المسألة الثقافية ومسألة التربية و التعليم على وجه الخصوص، وكذا المسألة الاجتماعية على المسألة السياسية حتى عندما اشتدّ الصراع السياسي مع الاستعمارين البريطاني و الفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى .

فقد رأى هؤلاء الإصلاحيّون أنّ المشكلة الرئيسية التي تواجه المسلمين ثقافية الطّابع بمعنى أنّ العملية التي تحفظ كيان الأمّة ، و تنهض بها من كبوتها تكمن في التربية و

ومرشد الأمّة والمرشد. وفي سنة 1908، أنشأ صحيفته الخاصة " الجزائر" التي لم تدم طويلاً، ثم أصدر جريدة "ذو الفقار" سنة 1914 بمساعدة عمر بن قدور. سنة 1915، زجَّ به في السجن حيث بقي حوالي ستة سنوات، لرفضه التعامل مع فرنسا.

[48] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ، مرجع سابق ، 157-159.

[49] ولد بالجزائر العاصمة حوالي 1886م، تردّد على الكتّاب منذ سنّ الخامسة، دخل المدرسة الشرعية الفرنسية عام 1895م، تعلّم على يد عبدالقادر المجاوي وعبدالحليم بن سماية. التحق بجامع الزيتونة في تونس ثم انتقل إلى مصر حيث شارك في الكتابة الصحفية في جريدة اللواء المصرية وهو يبلغ العشرين من عمره، كما كان يرسل مقالته إلى جريدة الحاضرة التونسية، والحضارة العثمانية الصادرة في اسطنبول ثم رجع إلى الجزائر سنة 1908م، وأسّس جريدة "الفاروق" سنة 1913 ودعا إلى تكوين جامعة الصحافة الإسلامية سنة 1911م. نُفي مشياً من العاصمة إلى الأغواط ثم إلى عين ماضي في نهاية الحرب العالمية الأولى، بعدها رجع إلى العاصمة سنة 1919، وانضم إلى هيئة تحرير جريدة الصديق. توفي سنة 1930 أو 1932، أهم آثاره كتاب حول التصوّف سمّاه: الإبداء والإعادة في مسلك طريق السعادة. سعدالله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج (5)، ص 276-282.

[50] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 159.

الوعي و التنظيم سعيا لتجديد الإسلام و دعوته ، و إدخاله في سياقات العصر و التقدم ، فالاستعمار الأوروبي مزعج لا شك ، لكن لا أمل حقيقي في التخلص منه إلّا بنهوض تربوي و ثقافي يضعنا في مصاف المتقدمين من الغزاة والمستعمرين.

إنّ هويتنا التاريخية لا تستطيع الصّمود و لا المقاومة الإيجابية إلّا باستدراك مافاتنا و استعادة مكامن قوتنا، و مسار النهوض لا يختلف كثيرا إلّا أنّ الأمر في نطاقنا الحضاري أسهل إذْ لا عداء بين الإسلام و العلم ، ولا صراع بين الدّولة و الدين في بيئاتنا. ولقد رأى بعض الإصلاحيين في الغرب الإسلامي و مشرقه أنّ العمل المقاوم ممكن بل ضروري على الجهتين السياسية و الثقافية في الوقت نفسه . فمحمّد عبده ومن تبِعه من المشارقة و المغاربة كانوا يرون أنّ الأولوية لمصارعة التخلّف والاستبداد الدّاخلي القائم على هذا التخلف ، و لم يكونوا بطبيعة الحال راضين عن الاستعمار بل كانوا يعتبرون القضاء على التخلف و الاشتغال بالتربية و التعليم و المجال الاجتماعي كل ذلك يزيل الاستعمار و يدحره بشكل تلقائي[51]

إنّ الإصلاحيين و المثقفين المسلمين عُنُوا منذ عشرينات القرن العشرين بمسائل الهوية في كتاباتهم ودروسهم و محاضراتهم ، وفي تكوينهم للجمعيات الإسلامية الرّامية لحماية عقيدة وهويّة الناشئة ، والهوية الخائفة والمنكمشة تتخذ لنفسها مسلكا خاصّا في العودة إلى الأصول يختلف عن مسالك سلفية القرنين الثامن عشر و التاسع عشر ، بل إنّ الإصلاحية سمّت نفسها سلفية ، واتخذت من العودة للأصول منهجًا لها ، لكنهت ما فهمت تلك العودة باعتبارها جوهر المسائل، بل ظلّت أداةً للاجتهاد والتجديد والإصلاح من ضمن اشكالية الإصلاحية المعروفة: المعرفة و التنظيم[52] .

[51] رضوان السيد، سياسات الإسلام المعاصر، مرجع سابق ، ص 30-31.

[52] المرجع نفسه، ص43.

لقد بدا الأستاذ مالك بن نبي مغرّدا خارج سربه عندما اتجه في أعماله إلى التواصل مع الثقافة الحديثة و نُخب الدولة الوطنية ، في وقت كان فيه الإحيائيون الإسلاميون بالمشرق كلهم تقريبا يتجهون للقطيعة مع الدولة الوطنية، والثقافة الحديثة على حد سواء . لقد كانت الإصلاحية ما تزال حية و قوية في المغرب الإسلامي، وكان مالك بن نبي كسائر رفقائه شديد الوعي بالحضارة الأوروبية و قيمها ، و في الوقت نفسه كان حادّ الوعي بالنزعة الاستعمارية و العدوانية في تلك الحضارة ، و شأن الإصلاحيين المشارقة حتى الثلاثينات ، فقد ظلّ عميق الاقتناع بأنّ التواصل مع الغرب ممكن بل ضروري ، لكن من موقع النّد للنّد ، و أنّ مخاوف الإسلامية الإحيائية - الصحوية من أوروبا لا مسوغ لها ، إلّا إذا بقينا على انحطاطنا و منازعاتنا و انقسماتنا، حالة الجمود الحضاري التي تعاني منها ،هي التي خلقت حالة القابلية للاستعمار، و لتجاوز هذه الأخيرة يجب التواصل مع العالم ، وبالنهوض الثقافي و العلمي و الاقتصادي، و عندما يتم ذلك يسهل علينا دحر الاستعمار و الدّخول في العصر[53] .

[53] المرجع نفسه، ص 45.

المحاضرة الرابعة: الإصلاح الديني

انصبت جهود العلماء المصلحين الجزائريين ابتداء من بداية الربع الثاني من القرن العشرين إلى عشية قيام الثورة المسلحة في سنة 1954م، على النهوض بالمجتمع الجزائري، والعمل على ترقية مستواه الفكري، وتمكينه من قسط وافر من العلوم والمعارف، حتى يتسنى له إدراك حقائق واقعه المعيش في ظل الوجود الاستعماري، ومن ثم يسترجع الثقة بنفسه ويأخذ بزمام المبادرة التي تخرجه من دائرة التخلف والانحطاط إلى دائرة الرقي والازدهار.

وإذا كان الاستعمار قد ظن أنه أحكم قبضته على الأمّة الجزائرية التي لم يكن يستهدفها في ثرواتها فحسب بل عمد إلى تهميش الأعمدة التي تقوم عليها حياتها القومية ، وهي الدين واللغة والتاريخ وكل القيم الفكرية والأخلاقية التي تستمد منها معنى الوجود وأسرار العزة والكرامة فإن هذا النجاح لم يكن إلا مؤقتا وظاهريا فقط، وهذا ما عبر عنه أبو النهضة الجزائرية الحديثة الشيخ عبد الحميد بن باديس بقوله :" تستطيع الظروف تكييفنا ولكنها لا تستطيع أبدا أن تقهرنا" وعندما أكد كذلك:" أنّ جميع الأبواب يمكن أن تغلق أمامنا ولكن بابا واحدا لن يغلق هو باب السماء"[54].

وانطلاقا من هذا كان سعي المتنورين الجزائريين لإقامة دعائم نهضة جزائرية حديثة وأصيلة تؤمن بمبدأ" لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" ،وأن نهضة مجتمع ما تتم في نفس الظروف العامّة التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة البناء لنفس القانون[55].

[54]- عبدالحميد بن باديس، ما جمعته يدا لله لا تفرقه يد الشيطان، البصائر، عدد3 جانفي1936 .

2- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ترجمة مروان قنواتي ، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 183.

فقد وجه العلماء المصلحون عنايتهم بإعادة بناء البنية الذهنية للإنسان الجزائري كأهمّ خطوة ينبغي خطوها في سبيل إقامة دعائم نهضة وطنية ، وذلك بالاهتمام بالجانب الروحي العقائدي الذي لم يعد يمثل قوة دفع للأمة بل صار عائقا أمام تطورها، بعد أن طغت على الدين الأوهام والخرافات ودخل فيه ما ليس من جوهره ومبادئه بعد أن كان في عصوره الذهبية قوّة روحية ومبادئ اجتماعية مكّنت من صنع حضارة عربية إسلامية أضاءت العقل الإنساني بتوهجها، وكشفت له أسرار النّفس والروح، و وسّعت مداركه وفتحت له آفاقا واسعة في العلم ليعرف الكثير عن الإنسان والطبيعة والكون والطبيعة وما وراءها.

ولكي يتسنى للجزائريين توظيف البعد العقائدي في مشروعهم النهضوي فقد ارتسم الهدف، الذي يتمثل في تنقية الدين مما علق فيه من شوائب و إبراز صورته الحقيقية النقية بالرجوع إلى ينابيعه الأولى، واعتبر هذا الهدف في ظاهر الأمر دينيا محضا شرطا لا محيص عنه لإصلاح المجتمع ، بل هو الكفيل وحده بتحقيق الإصلاح المنشود لأن المبادئ الجوهرية الدينية تلازم الدنيا بالآخرة .

المحاضرة الخامسة: الدعوة إلى التجديد ومحاربة الجمود.

احتل موضوع الإصلاح الديني مكانة مهمة في الخطاب النهضوي الجزائري واقترن به من البداية بل يعد العلامة البارزة له، حيث شعر العلماء المتنورون بذلك البون الشاسع الذي صار يفصل بين أمتهم والغرب، ولذلك دعوا إلى وجوب إعادة إحياء الاجتهاد وإعمال العقل واعتباره محركا لعملية التوظيف الحقيقي للتراث العربي الإسلامي حتى يمكن الاستفادة منه في الحركة النهضوية والإحياء، فبالاجتهاد يمكن للعالم أن يؤول التعاليم الإسلامية تأويلا جديدا يتلاءم مع روح العصر ثم أن إعادة تنشيط الاجتهاد الذي يصل الماضي بالحاضر ويستشرف آفاق المستقبل هو عين التجديد، الذي يهدف إلى جعل المسلمين يتجاوزون المشاكل التي تعترض طريق نهوضهم وتقدّمهم، بعد أن انحطت هذه الأمّة إلى الدركات السفلى جاهلة لأمور دينها ودنياها، سادرة في غيّها ومغيبة عن واقعها، متشبثة بكل ما يمكن أن يزيد في معاناتها، وزاهدة في كل ما يمكن أن يطورها ويرقيها، إن لم نقل أنّها صارت راضية بأوضاعها المنحطة من خلال فهمها السخيف لدينها بأنّ الدنيا جنّة الكافر والآخرة جنّة المؤمن، ناسين أو متناسين قوله صلى الله عليه وسلم فيما معناه أنّه لا يصلح أخراه إلا إذا صلحت دنياه.

فانبرى الشيخ ابن باديس للدفاع عن الإسلام باعتباره الأساس المتين الذي يقوم عليه الكيان الجزائري، فقد كتب في جريدة البصائر تحت عنوان : " ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان" يبرز قيمة الإسلام في إرساء دعائم الأمّة الجزائرية فعنده أن الإسلام قد لعب الدور الأساسي في التكوين التاريخي للشعب الجزائري و حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية، حيث ساهم الإسلام في عملية المزج والتوحيد بين العرب الجاهلين لرسالة الإسلام، والبربر الذين أقدموا على اعتناقه في العقيدة واللّغة والآداب والأخلاق ،وجعل

منهم عنصرا عربيا مهمّا مسلما مع غيرهم من العناصر الوافدة على البلاد حديثا كالعنصر التركي والزنجي الإفريقي، أمّه الجزائر، وأبوه الإسلام[56].

واعتبر ابن باديس الإسلام العنصر الفعال الذي صهر أبناء الجزائر في بوتقة حضارية واحدة موحدة فقال: " إن أبناء يعرب وأمازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم أبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء ، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء حتّى كوّنت منهم في أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا ، أمّه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء أمازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعادة كلمة الله وما أسالوا من محابر في مجالس الدرس لخدمة العلم ، فأيّ قوّة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم"[57].

مع الرسالة الإسلامية بدأ أبناء المغرب لأوّل مرة في التاريخ يتحسّسون وجودهم ، فالرسالة حولتهم من طاقة معزولة تعيش على هامش التاريخ و تعرقل مسيرته إلى طاقة فاعلة تساهم في صنع التطور و في صيرورة الكيان و تحوّل الصراع في فضاء المغرب على رحابته، من صراع أفقي قبلي في مجمله إلى صراع عمودي مع الآخر "الكافر"، من صراع الانغلاق إلى صراع الفتح ، من صراع يكسر بين الشتات إلى صراع من أجل الوحدة بكل أبعادها. فالتاريخ الذي كتب للجزائر بالإسلام و في الإسلام و للإسلام لا يمكن أن ينفصل عن التاريخ العام للوطن و شخصنة أفراد الأمّة بكل أبعادها وخصائصها المتميزة .[58]

---

[56]- أحمد بن نعمان، كيف صارت الجزائر مسلمة عربية؟ ، دار الأمّة، الجزائر، ص 23.

4- المرجع نفسه، ص 43 .

5- محمود قاسم، الإمام عبد الحميد ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف، مصر، ط2، 1979، ص 63.

كما نجد الدين الإسلامي على خلاف باقي الأديان السماوية و الوضعية هو الذي أسهم في نشر اللغة التي جاء بها نزول القرآن الكريم باللسان العربي المبين و ما ترتب على ذلك من تقديس المسلمين للّغة العربية كتقديسهم للقرآن الكريم،و تقديس المجتمع لشيء من الأشياء يتطلب بالضرورة فهمه و المحافظة عليه.

و من ثمة ارتبطت اللغة العربية ارتباطا وثيقا بالإسلام لأنها مفتاح فهم العقيدة الدينية و وسيلة المحافظة عليها.[59]

6- المرجع نفسه، ص 63

المحاضرة السادسة: التصوف والطرقية.

هناك عدة تعريفات للتصوف في الماضي و الحاضر، منها تعريف ابن خلدون، إذ قال عن أصل طريقة القوم (التصوف): "وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيها مما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه . والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"[60].

وكان ذلك معروفا في الصحابة والسلف، حسب رأيه، ولما أقبل الناس على الترف في الدنيا ، اختص الذين تمسكوا بالعبادة باسم الصوفية ، فالتصوف عند ابن خلدون، إذن، عبادة ومجاهدة للنّفس ومحاولة لإدراك الحقيقة، وقد قال في مكان آخر: «لا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام، إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي النهاية المطلوبة للسعادة" [61]، وقد سمى المقام الذي أشار إليه «مقام التوحيد والعرفان». أي أن غاية المتصوف هو التوحيد و المعرفة.

أما رجال الطرق أنفسهم فيختلفون حول تعريف التصوف حسب الوسائل التي يستعملونها للوصول إلى هدفهم، فإن البعض يراه في الممارسات والوسائل التي توصل إلى الحقيقة، وهي ممارسة التطهر والتقشف والقيام بالواجبات الشرعية على أتمّ وجه والتحلي بالأخلاق والفضائل وتجنب كل الشبه والمزالق ، بينما يراه آخرون منهم في الوصول إلى الإلهام والكشف والرؤى والسرحان في عوالم الأسرار الغامضة.

---

[60]- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، المجلد الأول، ط 2، بيروت،1961 ، ص683.

[61]- المرجع نفسه، ص864.

وهذا أحد المتصوفين في القرن الماضي، قد عرف التصوّف بأنّه القيام بالواجبات الشرعية من صلاة وصوم وحج، ومعرفة الله وشكره وحمده والتضرع إليه في كل وقت، وهو ترديد الشهادة (لا إله إلا الله) كلّما أمكن ذلك، ومن واجبات المتصوف عنده الابتعاد عن مغريات الحياة الدنيا التي يعيش فيها، وأن يضع نصب عينيه دائما الحياة الأخرى و يستعد لها.

كما عليه أن يتخلى عن الحسد والفخر بالنفس، وأن لا يكلف نفسه ما لا طاقة له به وأن لا يلقي بنفسه إلى الهلاك، ويعمل الصوفي جهده للبحث عن مكان للخلوة يمارس فيه عبادته ونشاطه الروحي بإتقان و خشوع وسط جو من الحريّة والإرادة، أما من لا يفعل ذلك فهو ليس من المتصوفة في شيء .

ويمكن اعتبار هذا الرأي بأنه رأي معتدل بالنظر إلى ممارسات البعض من أدعياء التصوف، فمنهم من كان يبالغ في الممارسات الظاهرة كالرقص والتواجد والتضارب، ومنهم من كان يبالغ في الانقطاع والانعزال والتضحية ليس بنفسه فقط ولكن بأخذ غيره من الأتباع بذلك، ومنهم من كان يبالغ في أرقام الأدعية والأوقات، حتى تصبح الحياة كأنّها ما خلقت إلا لكي يقضيها في طقوس يحدّدها الشيخ للأتباع.

ولعل هذا الفريق هو أقرب إلى الدراويش منه إلى المتصوفة ، وربما هو أقرب في ذلك إلى المشعوذين، كما أن هناك أيضا مرابطين يمارسون التعاليم الدينية و يتطهرون ويتقشفون ويفعلون الخير طمعا في حياة أخرى مثالية، وأملا في أن يكونوا أولياء الله ، صالحين في نظر الناس بعد موتهم، ولكن هؤلاء رجال صالحون وليسوا متصوفة، كما أنهم ليسوا من رجال الطرق الصوفية المعروفة .

وإضافة إلى المتصوف والدرويش والمرابط والشيخ هناك الشريف، و هو الذي ينتسب إلى الرسول (ص) عن طريق ابنته فاطمة، ويسمّي البعض هؤلاء بأنّهم أشراف الأصل، وقد ظهر الأشراف في القرن الماضي ظهورا سياسيا وغير سياسي، وكان بعضهم وراء الثورات، ولكن أيضا كانوا يعلّمون النّاس الطقوس والممارسات القريبة من التصوف، ويظهرون لهم الكرامات وخوارق العادات، قبل أن يطلبوا منهم القيام بأي عمل آخر، و كان الجهاد أحد وسائلهم، ولكنّ بعض الأشراف كانوا مسالمين مكتفين بحفظ شجرة النّسب الشريف، وكانوا أقرب إلى الفقر منهم إلى الغنى، ما عدا أولئك الذين توظفوا أو هاجروا من البلاد.

ولنعرف الآن كل فريق تعريفا قصيرا بقدر الإمكان: فشيخ الطريقة (ويسمى أيضا خليفة الورد، ومولى الطريقة) هو حامل البركة التي عرّفها بعضهم بأنّها الكثرة والعندية والقناعة المعنوية، وهو الذي يرث إمام الطريقة أو المؤسس.

وقد يكون الشيخ وليا صالحا أو عالما شهيرا كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي في الجزائر وأبي مدين في تلمسان ، وقد يكون شخصية مجهولة إلى حد كبير، ولكن الشيخ المتعارف عليه في الأزمنة المتأخرة عند أهل الطرق الصوفية، هو الذي يعطي البركة لغيره، وهو الذي يعين خليفته ومقدميه ويمنح الإجازات ، وتكون إقامة الشيخ عادة عند قبر مؤسس الطريقة أو في الزاوية الرئيسية.

و يعتبر الشيخ هو ظل الله في الأرض والنائب عنه في نظر البعض، وعلى الإخوان الاتّباع و الطاعة، لأنّ الله يحكم بطريق الشيخ.

وتظهر العقيدة في الشيخ في أشكال مختلفة، في القباب والأضرحة والخلوات والزوايا والأحجار التي تقام أو تنصب إيمانا به، وتمسكا بتعاليمه حقيقة أو خرافة، كما تظهر

العقيدة في الشيخ في شكل الخرق المحفوظة والمعلقة وفي الشموع والمصابيح، والأعلام والأشجار، وحول الكهوف ومنابع المياه.

ويقوم المعتقدون في الشيخ بأعمال و ممارسات تعبّر عن تعلّقهم به، وذلك بالتبخير، والصلوات والأدعية، والزغاريد، والقرابين، والقيام بألعاب وحركات معينة، وإلقاء الخطب، والالتجاء إليه، والتداوي عنده، وبعض هذه الأعمال تكون فردية أو جماعية، ومن الأعمال الجماعية تلك الاحتفالات الموسمية الكبيرة التي لها دور اجتماعي كالتضامن والتقارب والتغافر والاشتراك في التراث والعادات والتقاليد، وإنشاد الأناشيد والأغاني الدينية، وإطعام الفقراء، والتلاقي بعد افتراق طويل[62].

ولهذه المواسم أسماء عديدة، حسب الطريقة الصوفية وشيخها، مثل الحضرة، و الزردة ، والوعدة .

و الشيخ هو الذي يعطي الإجازة، وهي على أنواع منها الإجازة المفصلة المسلّمة للخليفة (أو النائب عند بعض الطرق)، وقد تكون بالمراسلة.

و الإجازة هي شهادة و وصيّة أيضا، فالشيخ يكتب ويوصي ويشهد بأن خليفته هو فلان، وأنّه قد منحه بركته وأورثه إياها، وأن هذا الخليفة هو محل ثقته وهو مكلّف من قبله بإعطاء الإجازة لغيره وكذلك إعطاء الأوراد وإدخال المريدين في الطريقة، وعليه أن ينشر الطريقة وأن يحافظ على سمعتها ومبادئها وأموالها.

والخليفة عادة يكون من أقرب النّاس إلى الشيخ كابنه أو صاحبه أو تلميذه، وتحمل الإجازة العبارات الدينية والسلسلة الصوفية وكيفية إدخال الناس في الطريقة، أما

[62]- انظر بير منغان، مدخل إلى الجزائر، Initiation، 1957، ص 258 .

الإجازات للمقدمين فتكون عادة مختصرة وتقتصر على خلاصة تعاليم الطريقة كما تلقاها الشيخ، وقد يكتب الشيخ مجرد رسائل للتزكية و التوصية [63].

وتختلف طريقة إدخال الراغبين في الطريقة من واحدة إلى أخرى، فمنهم من يأخذ يدي المريد بين يديه، ومنهم من يأخذ يدا واحدة منه بين يديه، ثم تكون القراءة بعده لعبارات محفوظة ثم الذكر.

وإذا كانت امرأة فإن الشيخ أو خليفته يطلب من السيدة وضع يدها في إناء من الماء، ومنهم من يجعلها تمسك فقط طرف السبحة، وهناك من يكتفي فقط بطلب ترديد الفاتحة والذكر خلفه.

ومهما كان الأمر فإن على المريد الطاعة المطلقة (كالميت بين يدي غاسله) حسب العبارة المستعملة، وجرت العادة أن يكون للشيخ أو الخليفة زاوية يشرف عليها، ومعه هيئة كاملة من الشواش والخدم والطلبة .[64]

وقد تداخلت في الأعوام الأخيرة لفظة المرابط، فأصبحت تطلق بعمومها حتى على الدراويش والشيوخ ورجال التصوف والشعوذة، وهذا الاستعمال أقرب إلى الاستعمالات السياسية منه إلى التاريخ، فكلما نقم البعض على أهل الدين أو لاحظوا بعض التخلف في التفكير قيل لفلان هذا إنه "مرابط "، يعني أنه رجل دين متخلف أو خرافي .

والواقع أن لفظ المرابط له معنى تاريخي وسياسي بعيد، فهو يعني المجاهد، لأنه أصلا جاء من كلمة (رباط)، والرباطات قامت أساسا في الثغور وأماكن الخطر التي يهجم منها

---

[63]- عن الإجازات انظر العلوم الدينية.

[64]– أوكتاف ديبون واكسافييه كوبولاني ، الطرق الدينية الإسلامية، الجزائر، 1897.

الأعداء، وهكذا كانت الرباطات قلاعا وحصونا لمنع الخطر الأجنبي، وكان المرابطون هم المجاهدون الذين يحمون الثغور ويتصدون للأعداء .

و بعد تولي العثمانيين الدفاع على الثغور انحصر نشاط المرابطين في أعمال البر والتعليم وإصلاح ذات البين وتأمين الطرق، وقد بنوا لأنفسهم أو بنى لهم الناس زوايا، بدل الرباطات ، فتحولت الرباطات إلى زوايا و معاهد.

و نظرا لعلاقة المرابط بالجهاد قديما ولتأثيره بين الناس حديثا اهتم به الفرنسيون اهتماما خاصا، وقد وجد باحثوهم أن النفوذ في الريف تتقاسمه ثلاث قوى محلية هي المرابطون والأجواد والأشراف. وعرفوا المرابطين على طريقتهم، بأنّهم نبلاء الدين و أن هذا النبل عندهم وراثي.

ونظرا لمكانتهم فإنّ الناس قد أوقفوا على زوايا المرابطين الأوقاف (الأحباس) الكثيرة[65]. وقد كان لبعضهم زوايا عظيمة ، وأملاك كثيرة، وبعضهم كانت له زوايا صغيرة، وكانوا يعيشون في فقر وبؤس، بتقدم الزمان .

وبعد خمسين سنة من الاحتلال (1880) وجد أحد الباحثين أن عدد عائلات المرابطين في الجزائر لا يتجاوز 115 (مائة وخمس عشرة عائلة)، منها 20 في إقليم وهران، و55 في إقليم الجزائر، 40 في إقليم قسنطينة .

دون ذكر الجنوب لأنه كان غير محتل بعد في عدد من أجزائه، ولاحظ هذا الباحث أن لهؤلاء المرابطين نفوذا عظيما يفوق أحيانا نفوذ الأجواد أو الرؤساء الذين يمارسون السلطة الزمنية كموظفين عند فرنسا كون المرابطين لم يكونوا متساوين في السلطة أو في الوضع الاجتماعي أو في الثقافة، فمنهم من كان صاحب زاوية غنيّة ورثها عن آبائه وأجداده ،

[65] – ألبير ديفوكس، المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر، الجزائر، 1878.

وورث معها سمعة دينية يعيش عليها، سمعة كانت لأحد أجداده سواء كان شريفا بالنسب أو جاءته سمعته من التدين والعلم والورع، بينما كان بعضهم مرابطين صغارا لهم زوايا فقيرة، وسمعة محدودة، ويعيشون على الصدقات إلى جانب ضريح قديم فيه رائحة القداسة لأحد الأجداد[66].

[66]- Louis Rinne, Marabouts et khouan, étude sur l'Islam en Algérie, Alger, 1884, p14.

المحاضرة السابعة: مآخذ العلماء على الطرقيين.

عندما أقدمت القوات الفرنسية على احتلال الجزائر سنة 1830م، عمدت إلى الاستحواذ على مؤسسات الجزائريين الفكرية والثقافية والدينية وفق مخطط يستهدف ابتلاع الجزائر حضاريا ، من خلال حرب إبادة شرسة على أمّة الجزائر فكان الكثير من أعلام الثورات الجزائرية طرقيون والزاوية هي المدرسة العسكرية التي يتخرج منها المجاهد في سبيل الله، تزوده بالسلاح الروحي لتعويض النقص في السلاح المادي ، وربما بارك شيخ الطريقة الغزوة ودعا لها بالنصر، وشيّع القائد بيدين ضارعتين إلى السماء إن لم يكن هو نفسه القائد، لقد كانت الحروب مواجهة بين الصليبية والإسلام، وليس من قبيل الصدفة أن يسمى جيش الأمير القادر ب (الجيش المحمدي) و أن ترد غير مرة المملكة المحمدية في خطبة البيعة التي وجهها إلى زعماء القبائل ، كانت الثورة ثورة عقائدية وكان القتال جهادا في سبيل الله [67]

وقد تلاحقت الثورات بعد استسلام الأمير عبد القادر آخذة برقاب بعضها فلم تعرف الجزائر طيلة مدة الاحتلال سكونا في المقاومة و هدوءا لعاصفتها ولم تمر عليها عشر سنوات بريئة من تبعات الجهاد وآلامه ومآسيه فالاحتكاك بمحارب العقيدة لا يزيد جذوتها إلا توهجا[68]

و كان كل فشل تمنى به إحدى هذه الانتفاضات - من ناحية - يذكى الحفيظة في أختها لإعادة الكرة.

[67]- صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، ش.و.ن.ت ، الجزائر، د.ت ،ص 109-110.

[68]- المرجع نفسه، ص 112.

ولكن الهزائم هي الأخرى - أخذت برقاب بعضها، وراحت الضربات قاضية على المقاومة المتلاحقة أنفاسها، فكان أن أصبحت العقيدة والروح هو الملاذ والحصن الذي احتمى به الشعب حيث لعبت (الزاوية) دورها الذي لا ينكر في الإبقاء على هشاشة العقيدة في جو خانق مسموم، والإبقاء على اللغة العربية بالاعتكاف على القرآن مصدرها الأول هربت به إلى ظاهر المدينة يوم ضاقت المدينة المحتلة عن قيام مسجد أو فتح كتاب، فبرزت بعض الزوايا أشبه بالمعاهد الدينية تزود خريجيها حظا وافرا من التحصين الديني أمام الغزو الصليبي الذي يستغل فقر الشعب فيحمل الصليب في يد ويعطي الخبز باليد الأخرى[69].

وكان أهم ما قامت به الزوايا المحافظة على القرآن الكريم وتحفيظه وحفظه في صدور وأبناء المسلمين كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا حتى لا تمتد إليه يد التحريف والتغيي[70].

لكن هذا الدور الإيجابي للزوايا والطرق سرعان ما راح يضعف تدريجيا بإحكام الإدارة الاستعمارية قبضتها وبسط هيمنتها على الكثير من هذه الطرق والزوايا حيث جعلت من هذه المؤسسة الدينية الإسلامية مؤسسة رسمية خاضعة لنفوذها وأصبحت الطرق الصوفية نفسها خاضعة في مواردها وحياتها المادية والروحية للإدارة الاستعمارية بعد أن كانت حرّة في عملها الروحي ووظائف رجالها وأملاكها، أكثر من هذا أن الإدارة الاستعمارية حاربت الأتراك عن طريق الدين ولفقت قصصا وهمية وخرافات أسندتها إلى الأولياء لتبرز دخول الاستعمار إلى الجزائر وخروج الأتراك منها[71]

وتمكنت سلطات الاحتلال من إخضاع جميع الزوايا لنفوذها ولم يبق رجل الدين يتردد على المساجد معلّما إلاّ إذا خضع لأوامر السلطات الفرنسية في الاقتصار على تعليم

16- المرجع نفسه، ص 113.

[70]- محمد نسيب، زوايا العلم و القرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، د.ت ،ص 50 .

[71]- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط1، 1981، ص 24.

الطقوس، ثم ما لبث هذا الاستعمار بعد هذه الخطة التفكيكية أن أخضع بعض رجال الدين المدجنين وكوّن منهم أعوانه .

و الحق أن العلماء المصلحين لم يحاولوا في البداية أن يدخلوا في صدامات مع رجال الطرق حتى لا يبددوا طاقات الأمّة، ولم تكن نيّتهم إقصاء هؤلاء المشايخ الطرقيين من المشهد الديني و الاجتماعي الجزائري، بل حاولوا أن يتعاملوا معهم من منطق المصلحة الوطنية ، ولم يعمّموا الحكم على جميع الطرق بأنهم قد حادوا عن الجادّة و خرجوا عن تعاليم الإسلام، ذلك أن البعض منهم في نظر الإمام ابن باديس قد أخلصوا لله و الوطن و كانوا بعيدين عن مواطن السوء و الشبهات لذلك لم يعمم حكمي التبديع و الخيانة على كل منتسب إلى الطريقة بدليل استشهاده بالمتصوفة السنيين كالإمام القشيري [72] والطريقة السنوسية و خاصة في عهد مؤسسها محمد بن علي ذي النزعة الإصلاحية والثورية الذي رأى أن التجديد الروحي الأخلاقي هو أساس التحرر من الأجنبي [73]

كما طالب بعض المصلحين من رؤساء الزوايا و أبنائها أن يحوّلوا بعض محلاتهم الدينية إلى مراكز خيرية و مدارس أخلاقية تسعى لإيصال الخير و نفع العموم لا لنفعهم وحدهم ،و لكن لتكوين رجال مخلصين مؤهلين للدفاع عن الدين والوطن و البحث عن المواهب الفكرية الخلاقة و الأدوية الناجعة لمعالجة الأمراض الاجتماعية و الفساد الخلقي و العقائدي [74] .

---

[72]- هو الشيخ أبي القاسم عبد الكريم بن موازن القشيري المولود عام 376 هـ و المتوفي عام 465هـ، ينتمي إلى التصوف السني المعتدل محارب الطرق الصوفية المنحرفة في زمانه. للمزيد منه أنظر د/مقداد بالحسن، فلسفة الحياة الروحية دار الشروق ط(1)، 1405هـ /1985م بيروت ص 111 112.

[73]- علي علواش، منهج الإصلاح عند الإمام عبد الحميد بن باديس بين السلفية و النهضة، أطروحة دكتورا دولة ، جامعة الجزائر،1999، ص 176.

[74]- عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية(1945/1931)، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1981،ص198 .

بل إنّ النداء الذي وجه على شكل اقتراح تحت عنوان: " حول اقتراح تأسيس حزب ديني إصلاحي كان القصد منه محاربة كل مظاهر البدع و الخرافات في المجتمع الجزائري وليس المقصود منه فقط بدع مشايخ الطرق مما يدل على البعد الشمولي للفكر الإصلاحي و يدحض الفكرة حول مسائل و خلافات جزئية"

و هذه البدع الضالة التي شوهت دين الإسلام و معتنقيه لم تكن في وقت من الأوقات مقصورة على مشايخ الطرق و أرباب الزوايا كما نراه من سهام الملام وأسنة التعنيف و التنديد من قلم الكتّاب في هذه الأيام بل هي في الواقع إذا أنصفنا أنفسنا تجسمت بكامل الصورة في كل طائفة من الطوائف الجزائرية من غير فرق بينها إلا من عصمه الله [75].

وقد كانت تعرية أدعياء الدين وفضح ممارساتهم الخرافية البداية الأولى للفكر الإصلاحي في مواجهة تيار الطرقيين المنحرفين حيث كان هؤلاء الأرباب (مشايخ الطرق) يظهرون في صورة قداسنة مرعبة مرهبة للعامّة من النّاس حيث أصبح الدين في عرف أدعيائه (تعبديا) لا يقبل الجدل ولا النقاش لا يقبل إلا التسليم و أصبحت الكلمة البشرية المجسدة لهذا الوضع اعتقد ولا تنتقد [76].

و في حرمة هذه القداسة و الحرم الآمن لهذه الولاية، عاش الانحراف الديني أزهى عصوره وطمح حتى الوثنية العمياء [77]، و نفض أدعياء الدين أيديهم من كل واجب أمر به الذين استحلّوا كلّ ما نهى عنه الدين، و تعالوا بقداستهم إلى ما فوق الفرائض و

---

[75]- الشهاب عدد9 (1925).

[76]- صالح خرفي، الحركة الإصلاحية و الانحراف الديني، مجلة الثقافة، عدد 7،1972 ، ص 60.

[77]- لقد وصل الأمر بالناس إلى أن ربطوا كل ظاهرة طبيعية بكرامة ولي من الأولياء كما راحوا يفسرون كل ظاهرة اجتماعية أو حادثة سياسية يتدخل هذا الولي أو ذاك أو بناء هذا الولي أو يذلك بحيث من يستعرض تاريخ الجزائر مثلا منذ القرن 13م يهوله أن يجد أن الخرافة كانت هي الطابع الذي غلب على حياة الناس و لو أن ظاهرة الخرافة انحصرت في أوساط العامة لهان الأمر، ولكن تلك الظاهرة شملت طبقة من العلماء ممن لهم قدما راسخا في العلوم الدينية و الثقافية. أنظر العيد مسعود، ص 20.

الواجبات و استوى الحلال الحرام في اجتهادهم وامتزجت العربدة بالحوقلة في مواسمهم و موالدهم، وقد أشار إلى هذه الحالة المتردية التي آلت إليها الطرقية فقال:" و أن هذه القلعة لهي المعقل الأسمى و الملاذ الأحمى لأصحابنا اليوم، فكل راقص صوفي و كل ضارب بالحابل صوفي و كل عابث بأحكام الله صوفي، وكل ملحد في آيات الله صوفي [78] .

بل إنّهم أي الطرقيين استعبدوا العامّة في كل أمورها المادية و الروحية وشكلوا شريحة محظوظة في المجتمع تعيش في ترف وبذخ على حساب بؤس الشعب و معاناته و هم في هذه الصورة يشكلون مشهد من مشاهد العبودية لا يختلف في شيء عن العبودية في أوربا في العصور الوسطى، يقول الشيخ الإبراهيمي:" و حاضر هؤلاء الأشياخ و قد دانت لهم الأمّة و ألقت إليهم يد الطاعة ومكنّتهم من أعراضها و أموالها أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثونها أولادهم فاسقين يبددونها في الخمور و الفجور و السيارات و الملابس و القصور.

و ما ضرّهم أن تهزل الأمّة إذا سمنوا ؟ ما ضرّهم إذا فسدت أخلاقها ما دام خلق البذل والطاعة لهم صحيحا؟ ما ضرّهم أن تتفرق كلمة الأمّة مادامت مجمعة على تعظيمهم واحترامهم، و مغضية على شرهم و إجرامهم[79].

فكان أن قام المصلحون بحملة شعواء على كل مظاهر البدع والدجل و الخرافات التي كانت تعجّ بها الحياة في كل المدن و القرى في لبوس ديني زائف قصد تنقية البنية الذهنية للمسلمين الجزائريين من ركام أفكار رجعية متخلفة عفى عنها الدهر و لا صلة لها بأحكام النقل و العقل [80].

---

[78]- المرجع نفسه، ص 60.

[79]- الشيخ البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 38.

[80]- المرجع نفسه، ص 34.

فآخذ العلماء المصلحون على الكثير من الطرقيين ركونهم للاستعمار و في الكثير من الأحيان صاروا أداة طيعة لتحقيق أهدافه البعيدة، الأهداف التي عجزت الإدارة الاستعمارية بكل ما لديها من إمكانات و آليات من تحقيقها، و هنا تكمن أهمية تركيز العلماء المصلحين الذين راحوا يشدّدون لهجتهم ضدهم أكثر من الاستعمار في حد ذاته لأنّ في إضعاف شوكتهم هو الحدّ من نفوذهم وتأثيرهم السحري الذي دام ردحا طويلا من الزمن على الجماهير ويعد البداية الحقيقية للإجهاز على الوجود الاستعماري في البلاد واعتقد أن هذا هو الدافع الأساسي الذي جعل حركة الإصلاح في الجزائر اكثر تشدّدا من غيرها في بلدان العالم الإسلامي ضد تيار الطرقية الضالة لأنها تحالفت مع الاستعمار ضد الشعب الجزائري فصار مصير امتيازاتها مرهون بمصير الاستعمار و إلا بماذا تفسر مراسلاتها السرية و العلنية مع الإدارة الاستعمارية [81]

وقد انتهى الأستاذ الأمام الشيخ ابن باديس إلى اتهام الطرقية المنحرفة بالعمالة لهذا الاستعمار وقال بأن الأمّة الجزائرية ابتليت بنوعين من الاستعمار الأول استعمار مادي ويتمثل في فرنسا بخيلها ورجالها و الثاني وهو الاستعمار الروحي ويتمثل في الطرق الصوفية التي سيطرت على أرواح الناس ونفوسهم وعقولهم و هو أشدّ النوعين، و لا يمكن القضاء على النوع الأول إلا إذا قضينا على الاستعمار الثاني لأن الاستعمار يعتمد في سيطرته و في سياسته على الاستعمار الروحي فهو اليد التي تنفذ الأوامر و الجسر الذي يفتح له الطريق[82].

[81]- من هذه المراسلات التي تمت بين رجال الطرق و الادارة الاستعمارية مراسلة شيخ زاوية الهامل عبد القادر القاسمي الى السيد الحاكم العام للجزائر الرسالة مؤرخة بالجزائر في 1936/ 09 / 7 م، والموضوع يدور حول تنبيه الإدارة الفرنسية لنشاط العلماء الذي يمكن أن يشكل تهديدا لفرنسا بظهور الوطنية ضاربا امثلة بما قاله الشيخ العقبي في الملعب البلدي المنشور بجريدة الأمة في 11 أوت 1936، A0M . H46

[82]- محمود قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس: الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، مرجع سابق، ص40 .

كما أكد الأستاذ مالك بن نبي على تسخير الإدارة الاستعمارية للطرق المنحرفة لخدمة أغراضها و التمكين لمشاريعها و مخططاتها فقد ذكر ما شاهدت عيناه من سيطرة الروح المرابطية الطرقية لمدينتي آفلو و الأغواط مثلا و تشجيع الاستعمار لمظاهر الاستعراض السنوي للطرقيين ووصف مالك حالة الوجد و الجذب الصوفي وصفا يفوق شهادة الرحالة الألماني حتى أن الغائب عن الوعي في الحضرة كان يخرق أمعاءه بسفود و حالات التخليص من الجن و ليالي الحضرة التيجانية و الرحمانية و العيساوية و القادرية و العمارية ، كانوا يرقصون على وقع الدف لتجلي الكرامات و الخوارق و نيل البركات [83].

كما نشر الشيخ ابن باديس في شهابه مقالا مترجما لكاتب فرنسي اشتراكي أكد فيه صاحبه علاقة شيوخ الطرق بالسلطة الاستعمارية وقال انّهم أصدقاء مخلصون لفرنسا مع تحميل هذا الكاتب الحكومة الفرنسية مسؤولية تساهلها مع المصلحين الذين يهدمون في رأيه سلطة أصدقاء فرنسا بآيات من القرآن و ينفذون آراء جماعات أجنبية خفية في القاهرة ودمشق ومكة فإنه سجل شهادته التي تكشف عن حقيقة تاريخية طمسها خصوم الإصلاح لأغراض إيديولوجية سياسية ، وهي أن الحكومة الفرنسية كانت تتابع جمعية العلماء و تطور حركتها الإصلاحية بطريقة بوليسية قال عنها صاحب المقال بأنها كانت منافية للأخلاق و قوانين الجمهورية[84].

و قد شنع صالح ابن مهنا بالمشعوذين و الدجالين واعتبر أفعالهم خارجة عن الدين و هم كفار بلا شك زنادقة

و كل من وافقهم على ذلك فهو منهم وانتقد بشدة المنحرفين عن الجادة من الإشراف الذين يزعمون أن شرفهم ينجيهم مهما ارتكبوا من معاصي واقترفوا من خطايا و في ذلك

---

[83]- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 23.

[84]- علي علواش ، منهج الإصلاح عند الإمام ابن باديس ، مرجع سابق، ص176.

يقول:" قد يغتر الظلمة من الأشراف و الفسقة منهم بشرفهم مع ظلمهم للأيّام و تمردهم على الأحكام و عصيانهم للملك و مخالفتهم لسنّة نبيه عليه الصلاة و السلام هيهات ما هو إلا غرور شيطاني وأحلام و أماني، فالشرف لا ينفعهم في الدنيا و لا في الآخرة فالشرف المعتبر هو شرف التقوى و مخافة الله [85].

كما عاب على الناس الإيمان بالشيوخ إيمانا أعمى" لأنّ المشيخة صارت ملعبة في يد الأحداث و الصبيان بل صارت حرفة في أيدي الجهلة يأكلون بها الحرام و يفعلون الآثام و يخوضون في البدع والآثام[86].

كما عاب على الناس ذلك الاعتقاد الخاطئ في أناس ضالين و مضللين سموا أنفسهم ب" مرابطين" فراحوا يضربون الأمثلة السيئة في محيطهم الاجتماعي بتركهم للصلاة وانتهاكهم لحرمة رمضان وشربهم للخمر، فبين بأنّ المرابط ليس ذلك الجاهل المضيع لحقوق الله و حقوق عباده و كل مغفل معتوه ومجنون و منتهك لحرمات الله كترك الصلاة وانتهاك حرمة شهر رمضان و شرب الخمر و سب الدين والأغبياء يقولون هذا مرابط و إنما المرابط هو ذلك الملازم للعبادة و المواظب عليها[87].

أما العلامة القطب محمد اطفيش فقد حثّ المسلمين على ضرورة ترك البدع التي ألصقت بالدين، ومن تلك البدع ما يمس بجوهر العقيدة كتقديس بعض الأموات الذين حسب زعمهم يقدرون على النفع والضر في الحياة والتسليم بأن المسلمين ليس لهم حظ في الحياة الدنيا، بل عليهم أن ينتظروا الآخرة لكي ينالوا نعيمها وأن ليس لهم في هذه الدنيا إلا

[85]- سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1983، ص87.

[86]- المرجع نفسه، ص73.

[87]- - المرجع نفسه، ص74.

التعاسة والشقاء والحرمان ، و غير ذلك مما يورث الخمول و يقتل المواهب و يقضي على الدين.

أما الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة فقد كانت دروسه نارا على البدع والجمود والإلحاد حيث كان أول من درس وخطب على المنابر ضد البدع و الخرافات و المرابطية و الطرقية الضالة.

من خلال ما تقدم ذكره يمكن أن نقول بأن رجال الإصلاح و النهضة في مواجهتهم لتيار الطرقيين قد ركزوا على إبراز جملة من مظاهر الانحرافات التي وقع فيها الطرقيون من فساد في معتقداتهم و انحرافات في سلوكياتهم الاجتماعية و السياسية.

و كان العلماء المصلحون قد استعملوا في التمكين لخطابهم التجديدي و النهضوي منابر المساجد الحرة و النوادي و الزيارات العلمية لتوجيه العامة في مختلف أرجاء الوطن كما ساهمت صحافتهم الإصلاحية بقوة في مواجهة التيار الطرقي وفضح ممارساته بل وفسحوا بهذه الصحف المجال لإخوانهم في المغرب وتونس لدعم موقفهم و تعزيز مكانتهم في الأوساط الشعبية.

و كان من نتائج هذا المجهود الإصلاحي أن ضعف التيار الطرقي بعد أن نال المصلحون ثقة الفئات العريضة من الشعب، فحسب المؤرخ شارل اندري جوليان فان المرابطين ورجال الطرق بدأوا يتقهقرون و يفقدون مع الوقت عنصر المبادرة من جراء حملات العلماء على بدع المرابطين و النزهاء و خرافات اللؤماء و دناة المرابطين الموالين للإدارة الفرنسية.

و هكذا ارتفع صوت الإصلاح في الجزائر فكانت نتيجته انتشار الوعي الديني التجديدي في أوساط المجتمع الجزائري و تغلغله في كل نواحي القطر ،ولم تندلع الثورة التحريرية في

فاتح نوفمبر 1954م حتى أصبغت الحياة الثقافية و الدينية بالجزائر بالتجديد و الاصلاح و النهضة، وانسحب الطرقيون من الساحة بعد أن فقدوا كل اعتبار معنوي عند فئات الشعب العريضة.

فقد كانت المفاجأة مفزعة في أوساطهم حين علموا أن صوت المصلحين بقيادة الجمعية قد سبقتهم إلى أوساط الجماهير ، و هذا ما يفسر فشلهم الحقيقي و إعلان ولائهم للسلطات الفرنسية لا سيما و أن الجمعية كانت قد أحرزت ثقة أربعين في المائة من مجموع الشعب الجزائري باعتراف الإدارة الاستعمارية نفسها سنة 1954م حيث طلبت من جميع حكامها في أنحاء الوطن أن يقدموا تقارير تتعلق بنشاط الأهالي على كل المستويات، و هذا رغم علم و تشجيع الإدارة الاستعمارية للطرقيين [88].

و إذا كانت دعوة العلماء المصلحين قد استهدفت اجتثاث كل مظاهر الطرقية المنحرفة عن المجتمع حتى يقوى على النهوض و يستفيق من غيبوبته من فرط تخدير الطرقيين له مدة طويلة من الزمن ،فقد دعوا في مقابل ذلك النّاس إلى وجوب نهج طريق السلفية النهضوية التي تقوم على إحياء تعاليم الإسلام الصحيحة التي كان عليها السلف الصالح والانفتاح على المعارف وثقافة العصر.

وخلاصة ما تناولناه هو أن مجهود العلماء المصلحين في حقل الإصلاح الديني لم يكلل بالنجاح إلا بفضل التضحيات بالجهد و الوقت و المال ، كما أن السير في هذا الطريق لم تكن من بدايتها إلى نهايتها مفروشة بالورود بل كانت محفوفة بالمكاره ،فقد كان المصلحون يتعرضون في كل خطوة يخطونها لهدم صروح المبتدعين و المشعوذين لشتى أنواع التعسف و

[88]- أنظر مقال مؤتمر الطرقية ، جريدة البصائر ، العدد 111 ، السنة الثالثة 29 أفريل 1938 .

التشهير سواء من طرف الإدارة الاستعمارية او من بعض مشايخ الطرق و اتباعهم من العامّة الجاهلة بحقائق دينها و تعاليمه السمحة و من جهل شيئا عداه.

المحاضرة الثامنة: مكانة اللغة العربية عند زعماء الإصلاح في الجزائر

ساهمت اللغة العربية بقسط وافر في بلورة الشخصية الجزائرية، حيث شكلت كما يقول الإمام الشيخ ابن باديس الرابطة التي تربط بين ماضي الجزائر المجيد وحاضرها الأغر ومستقبلها السعيد، وهي لغة الدين والجنسية والقومية ، ولغة الوطن المحروسة[89].

ثم يضيف ميرزا فعاليتها في وحدة التماسك الاجتماعي فيقول:" إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين، أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من آلام وأمال[...]إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين وخدم العلم، وخدم الإنسانية ،هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا."[90]

ويعتبرها الشيخ ابن باديس اللغة القومية للجزائر، لأنها تعبر عن الهوية والمقومات الذاتية ، وهي لغة التفكير القومي الذي هو أساس تفكيرنا والذي يتميز وفقا لمميزات قوميتنا، يقول الشيخ ابن باديس:" تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها كما تختلف الأفراد، و لا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته، فالجنسية هي مجموع تلك المقومات وهي اللغة التي يعرب بها، ويتأدب بها، والعقيدة التي بنى حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من شاركه في هذه المقومات.[91]

---

[89]-- محمود قاسم، الإمام عبد الحميد ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، مرجع سابق، ص 63.

[90]-- المرجع نفسه، ص 63

[91]- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر الشيخ عبد الحميد ابن باديس ، دار الأمّة، الجزائر، ط1، 1998، ص 76.

كما أنها " الرابطة بين ماضي الجزائر المجيد و حاضرها الأغر و مستقبلها السعيد و هي لغة الدين و الجنسية و القومية و لغة الوطنية المغروسة.[92]

أما الشيخ البشير الإبراهيمي فيذهب إلى أن اللغة العربية تشكل أحد الروابط المتينة التي تحدد المفهوم الصحيح للوطنية الجزائرية الذي يشكل جزءا مهمّا من الوطن العربي الإسلامي: " هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن هي التي صيرته وطنا واحدا لم تفرقه إلا السياسة، سياسة الاستعمار في عصوره الوسطى، وسياسة الاستعمار في عهده الأخير، وهذه العروبة هي ماسكة على كثرة المفرقات، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادفة وهي رباطه الذي لا ينفصم ببقية العروبة في الشرق وهي السبب في كل مما يؤخذ من تلك الأجزاء وما يعطيها فينصرها في الملمات، ويتقاضاها النصر في المهمات، فالعالم العربي بهذه العروبة المكينة كالجسد الواحد إذا ألمّ بجزء من أجزائه حادث، أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث أو بالتوجع والامتعاض .[93]

بل إنّ الشيخ الإبراهيمي يعتبر الكيانات السياسية التي تأسست في الشمال الإفريقي كلها شكلت في بعدها

الحضاري مظهرا عربيا حتى وإن كان مؤسسها من البربر "إنّ كل ما يحتج به القادمون في عروبة هذا الشمال حجة عليهم، فالدول التي قامت كاللمتونية والرستمية والموحدية و الصنهاجية والمرينية والزيانية ليس لها من البربرية إلا النسبة العرقية وهي فيما عدا ذلك عربية صميمة ، عربية في الضروريات المقوّمة للدولة ، كوظائف العلم من إدارية ومالية

[92]- أحمد نعمان، كيف صارت الجزائر مسلمة عربية، مرجع سابق، ص23.

[93]- الشيخ البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، جزء 2، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت، ص 479،478 .

ووظائف القضاء من عقود وتسجيلات، وعربية في الكماليات التي تقتضيها الحضارة والترف كالغناء والموسيقى والشعر[94].

ولذلك ليس صدفة كما قال السيد عمار اوزيقان" أن تغذي اللّغة العربية اليوم شعور الانتماء إلى الوطن الجزائري، كما كانت تحي، منذ ألف سنة، حركة التوحيد اللّغوي في الدولة الفاطمية أو دولة الموحدين" [95].

كما اعتبرت الثقافة العربية بمثابة مقوم أساسي للشخصية الجزائرية، ولهذه الثقافة خصائصها المميزة التي تتمثل في:

1- إنها ثقافة عربية تشكل اللغة العربية إطارها، وهي لغة ذات تاريخ قديم متصل الحلقات، كما أنها ثقافة سايرت الحضارة ونظمها، وكانت أداة طيعة في الزيادة من إنتاجها الثقافي في ميادين الأدب.

2- خصوبة التراث الفكري العربي الإسلامي في الجزائر و العالم العربي.

3- إنّ لهذه الثقافة آدابها وفنونها، وآثارها التي انطبعت بطابعها الخاص، وتأثرت بظروفها ومزاجها، وترجمت عن أطوار حياتها، وتاريخها.

4- تمتاز الثقافة العربية عن غيرها من الثقافات الأخرى، بأنها ثقافة محررة، لأنها كانت وسيلة لتحرير الشعوب التي تقبلتها من الخرافات والوثنيات، والعصبيات والمظالم، وطريقا إلى إيقاظ الوعي في هذه الشعوب وتغذيتها بمثل أخلاقية جديدة، وفلسفة في الحياة والاجتماع متميزة.[96]

---

[94]- المرجع نفسه، ص 478.

[95]- عمار أوزيقان، الجهاد الأفضل، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 1962، ص29.

[96]- عيد الوهاب بن منصور، التاريخ المفترى عليه، أكتوبر 1952، جريدة البصائر، عدد 204.

المحاضرة التاسعة: محنة اللغة العربية إبّان الحقبة الاستعمارية

لقد أدركت سلطات الاحتلال الفرنسية المهيمنة على البلاد منذ 1830 م قيمة اللغة العربية في الحفاظ على كيان الأمة الجزائرية واكتساب العلوم والمعارف، فراحت منذ البداية تكشف عن عدائها التام للّغة العربية ، تنسج لها أحاييل المكائد لتقع بها في المصيدة وتزيحها عن الحياة العلمية ،فقد راهن الاستعمار على إحلال الفرنسية محل العربية :" إن أهم الأمور التي يجب أن يعتني بها قبل كل شيء ، هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامّة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا وتمثيلهم بنا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين" أو حتى إنصافا لهم كما قال أحد خريجي المدارس الفرنسية أنه :"عندما يتكلم الجزائريون لغتنا (اللغة الفرنسية) يصبحون نصف فرنسيين "[97].

وكان الهدف من وراء هذه السياسة هو صبغ الجزائر بصبغة فرنسية حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا بثقافتها العربية الإسلامية وفصلها عن شقيقاتها في المغرب والمشرق العربيين ، وبهذه الطريقة تصير الجزائر أسهل انقيادا وأكثر قابلية لسياسة الفرنسة والإدماج النهائي ، وكان الفرنسيون يعملون جاهدين على أن تكون الجزائر هي نفسها فرنسا[98].

وقد كان الاستعمار الفرنسي كما ذكر الأستاذ عمار أوزقان بارع الذكاء في محاربته المستمرة والمستميتة للغة العربية حيث كان يعمد إلى غلق كل مدرسة عربية موجودة على بعد

[97]- عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ،دار الأمّة، الجزائر، 1999، ص 63 .

[98]- المرجع نفسه، ص 63.

ثلاثة كيلومترات من أية مدرسة فرنسية غايتها تعليم بعض المفردات الكافية لإدارة العمال الزراعيين[99]

إلاّ أنّ اللغة العربية استرجعت نسبيا بعض وقعها في الأوساط الشعبية الجزائرية ، كما أن ما استحدث من مؤسسات تربوية و ثقافية عزز من مكانة اللغة العربية و آدابها ،فقد كثرت المدارس العربية التي تنشر المعارف العربية ،وازدادت النوادي و الصحف التي تنشر الثقافة العربية الإسلامية الأمر الذي أدى إلى اشتداد ساعد اللغة العربية بالجزائر. والفضل في ذلك يرجع إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث ساهمت في "التمكين لهذه اللغة في البيئة الجزائرية والحفاظ عليها وعلى ماضيها العريق و على الثقافة العربية الأصيلة ،ولم يقتصر الأمر على المناهج والبرامج التربوية أو على المحاضرات والدروس بالمساجد والنوادي أو على الصحافة التي لعبت دورا هاما أيضا في هذا المجال ،لم يكن هذا فحسب بل تعدى الأمر إلى الإدارة حيث كانت هذه المدارس الحرة تتعامل في أنظمتها الإدارية باللغة العربية "[100]..

وقد أدى هذا كله إلى حنق الإدارة الاستعمارية على اللغة العربية ،فبادرت إلى استصدار مرسوم 8 مارس 1938 م الذي أعلنت الحكومة الفرنسية بموجبه أن اللغة العربية " لغة أجنبية في الجزائر " ورغم استنكار الشعب الجزائري بكل فئاته وتوجهاته [101]

---

[99]- عمار أو زيقان، الجهاد الأفضل، مرجع سابق، ص 30 .

[100]- عبدالله ركيبي، عروبة الفكر والثقافة أوّلا، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1986، ص 27.

[101]- أحمد مريوش، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية الجزائرية ، مجلة الرؤية ، الجزائر العدد 2 (ماي ، جوان 1996 م) ، ص 12 وما بعدها .

السياسية لهذا القرار ،فإن الإدارة الاستعمارية لم تبال ومضت في سياسة قمع التعليم العربي الحر .

فأعلنت سنة 1948م عن مرسوم يمنع بموجبه كل من لا يحمل شهادة جامعية فرنسية أن يدرس وحتى أن يعلم العربية في الجزائر [102]، وقبله في سنة 1944م صدر مرسوم ينص على غلق المدارس الحرة ،وكان غرض الاستعمار من خلال سن هذا القرار هو تعطيل تعليم اللغة العربية وتهجينها أيضا بعدما أجبر تعليم الفرنسية إلى جانبها ، وبذلك يتسنى له إخراج نموذج من المتعلمين المولودين لغويا ،فيتحقق من ثم المشروع الاستعماري[103].

وقد عارض العلماء المصلحون وعلى رأسهم الشيخ الطيب العقبي قرار شاتينو ،وبعث برسالة مؤرخة في 20 نوفمبر 1945م إلى مدير الشؤون الأهلية يطلب فيها منه التراجع عن قرار فبراير لأنه يعارض مصالح الجزائريين :" فنحن نتوجه إلى هذا المشروع ونحن أقوياء ،وبحقنا أقوياء بما قدم لنا من صريح العهود والوعود ،لكن لتكونوا على ثقة سيدي المدير بأن المسلمين ليسوا متحملين مسئولية هذه الغلطة الفادحة ، نعم لقد كان من الممكن و لازال من الممكن أن نطلب من شيوخ التدريس الحر مقدارا من اللياقة و الكفاءة والأخلاق الحميدة واحترام القوانين والنظم.

[102]- ميلود نايت بلقاسم، العربية في التعليم العام و العالي و أساليب النهوض بها في الجزائر، مجلة الثقافة، عدد101، 1988، ص 20.

[103]- أحمد مريوش، مرجع سابق، ص 122.

وإنما الأمر الذي لا يفهم ولا يتوصل لفهمه هو إجباركم الخضوع لشيء ليس هو في طاقتكم ومقدرتكم ،وكيف يمكن أن نطلب من المسلمين وجوب معرفة اللغة الفرنسية دون أن تكون أبواب المكاتب مفتوحة على مصراعيها أمام الجميع دون أي تمييز أو إجحاف"[104].

وعوض أن تراجع الإدارة الاستعمارية نفسها و تعود إلى رشدها ،فتخلي بين الجزائريين و لغتهم العربية ،وترفع يدها على ما ليس لها فيه حق، ركبت رأسها و مضت من دون تردد في محاصرة اللغة العربية بالقوانين الجائرة في عز نضج الوعي الوطني الذي يعتبر اللغة العربية مسألة مقدسة غير قابلة للتفاوض ولا النقاش ، وكأنّ الإدارة الاستعمارية تريد أن توقف عجلة التاريخ.

فقد أقدمت على ما هو أشنع وأفظع ، ففي يوم 5 مارس 1954م أمام إعلان الحكومة الفرنسية عن احتمال تعليم اللغة العربية في حدود ما في الجزائر أمام تزايد النشاط السياسي الوطني ،اجتمع المفتشون العامون الأوروبيون للّغة الفرنسية في الجزائر وقرروا هذا القرار العجيب: «نعلن نحن المفتشين العامين للتعليم الفرنسي في الجزائر أننا قررنا ما يلي حيث أن اللغة العربية هي لغات ثلاث في الواقع :

1- العربية الكلاسيكية (أي الفصحى التقليدية) وهي لغة قديمة ميتة مثل اليونانية و اللاتينية.

2- العربية الفصيحة الحديثة وهي لغة أجنبية إذ هي معروفة في المشرق العربي فقط و غير معروفة في الجزائر و ممنوعة عندنا (أي في الجزائر).

3-العربية الدارجة العامية و هي لا تصلح للإدارة ولا للتعليم "فلا عربية إطلاقا فيالجزائر"[105].

[104]- الشيخ الطيب العقبي ، جريدة الإصلاح ،عدد 52 السنة العشرون 12 جوان 1947.

والواقع أنه لم تكن الإدارة الاستعمارية فقط هي التي تحارب اللغة العربية و تضيق عليها و تمعن في قمع أصحابها[106]،بل نجد كذلك الفئة المتفرنسة من أبناء جلدتنا من الذين أداروا ظهورهم للغتهم و حضارتهم العربية الإسلامية و تعلقوا بتلابيب المدرسة الفرنسية ، والمدرسين الفرنسيين الذين تعلقت قلوبهم بهم و سكنت نفوسهم إليهم ، فصاروا أعوانا لهم على إخوانهم في الدين و الوطن وراحوا يتحرشون عليهم خاصة بعد أن وجدوا أنفسهم موظفين في الإدارة الفرنسية ، و إخوانهم المعربين يكابدون المشقات من أجل الوصول إلى عمل لكسب الرزق و القوت ، مطلقين دعاية مازال مفعولها ساريا إلى يومنا هذا و هو أن الوظائف حكرا على المفرنسين وحدهم دون غيرهم مهما حصل غيرهم من الجمهور على معارف و حازوا عليه من شهادات.

يقول الأستاذ إسماعيل الزكري في هذا الصدد :"و أكبر حالة يرثى لها ببعض النواحي بالجزائر هي أن كثيرا من الناس الجهالة و المتشدقين بالتعليم الفرنسوي، تحدثهم عقولهم السخيفة بأن الرزق معلق بالحروف الفرنسوية ، فمن لم يحصل على الشهادة الابتدائية إلى النهائية لا يعيش ولا تحلو له الحياة و لو نال أكثر من عشرين دكتوراه بغير هذه اللغة ."[107]

---

[105]- ميلود نايت قاسم ،العربية في التعليم العام و العالي ، مرجع سابق، ص 20 -21 .

[106]-- وتعددت المدارس من أجل التمكين للغة العربية ،كان الشيخ بن باديس ينتهز كل فرصة للتعريف بمكانتها وبأنها غير معادية لأية لغة أخرى، في مناسبة انعقاد مؤتمر معلمي اللغة الفرنسية بقسنطينة اغتنم المناسبة فدعا معلمي اللغة الفرنسية من الجزائريين بضرورة النظر للفرنسية كلغة علم وثقافة لا كأداة لفرنسة الجزائر كما يريد الاستعمار :" إننا لا ننكر أن اللغة الفرنسية لغة علمية و عالمية معا ولكن الاستعمار لا يريد أن تكون كذلك عندنا إنما يريد أن تكون أداة لفرنسة أبنائنا وصرفهم بها عن لغتهم وجزائر يتهم فكان عليكم أن تثبتوا له بمؤتمركم أنكم جزائريون تعلمون الجزائريين لا فرنسيون تعلمون الفرنسيين ،كما كان علينا معاشر معلمي العربية أن نثبت له كذلك أننا لا نبغض اللغة الفرنسية ولا نحاربها ولكن لا نرضى بحال مهما انتشرت وتعددت مدارسها أن تخلف لدى أبنائنا لغة قومنا ووطننا ". أنظر با عزيز بن عمر، من ذكرياتي مع الإمامين الرئيسيين عيد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، الجزائر، 2006، ص 79.

[107]- إسماعيل الزكري ، هل من فضل اللغة العربية بالجزائر ؟ ،جريدة البصائر ، عدد 98 (05/ 12/ 1949).

ويرد الأستاذ الزكري على أمثال هؤلاء المتباهين على غيرهم باكتسابهم بلغة العدو للمناصب والوظائف بأن المعربين ما كانوا ليتحرروا من قيمهم الوطنية التي تدفعهم لا للارتزاق باللغة العربية فقط بل لكي يدفعوا المصاريف الكثيرة و ركوب المخاطر في سبيل تعلمها وتعليمها لأبناء الوطن ، و العمل من أجل ترقيتها و ازدهارها لأن في ذلك تأدية لواجب وطني: " وها نحن نجعل من يعتقد هذا الاعتقاد الفاسد و يزعم الزعم الباطل على يقين بأن إذا ما غادرنا الأوطان لأجل هذا الوطن المقدس واجب تعلم اللغة العربية ، و أنفقنا أموالا طائلة في سبيل بعثها و الفحص عن سيرة أدباءها و حملة لوائها الأبطال ،لا نتوخى وراء ذلك بحبوحة العيش و رفاهيته ، إنما نريد إحياءها ورفع رايتها بين أعين العدا المعزين للغتهم في كل مكان وزمان "[108].

و يكشف الأستاذ الزكري عن ما آل إليه حال اللغة العربية في الجزائر و نعتها بكل النعوت التي تزيد الناس نفورا من تعلمها حتى صارت غريبة في عقر دارها ،و هي التي كان لها الفضل الأكبر في بناء الحضارة الإنسانية و ما كان هذا ليحدث لولا ذلك التحامل عليها و الجهل بها و من جهل شيئا عاداه.

فاللغة العربية تمتلك من المهارات ما يؤهل الأمّة العربية الإسلامية لولوج عالم الرقي والازدهار، فهي كما عرفها مصطفى صادق الرافعي تعد :" صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه ،فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر،

[108] – المرجع نفسه.

حتى أن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة ، ونشأ الثاني على أخرى والثالث على لغة ثالثة لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء[109].

كما اعتبر الأستاذ رشيد رضا مسألة العناية بها واجب مؤكد لأن في ذلك تكمن سعادة الأمة في الدنيا والأخرة :"للغتنا العربية علينا من الحق ما للغة الإنجليزية على الإنجليز ، والفرنساوية على الفرنسيين، ولها حق آخر علينا هو أقدس من سائر الحقوق يوجب علينا إحياءها ، وهو حق الدين الذي لا يمكن حفظه إلا بها و هو ركن سعادتنا الدنيوية والأخروية"[110].

[109]– مصطفى صادق الرافعي ، من وحي القلم ، جزء 3 ، دار المعارف، القاهرة ،1972 م، ص 33 وما بعدها .

[110]– محمد كشاش، رؤية نهضوية لتطوير العربية : رشيد رضا نموذجا، مجلة المستقبل العربي، عدد 196 (1995/6 م) ،ص 115.

المحاضرة العاشرة: التربية والتعليم

تعد التربية النظام الاجتماعي الذي ينبع من فلسفة كل أمة وهو الذي يطبق هذه الفلسفة أو يجليها إلى الوجود ،وهو الجهاز الاجتماعي الذي يعبر عن روح الفلسفة من جهة ، وهذا الجهاز هو الذي يحقق تلك الفلسفة من جهة أخرى[111].

وقد كان لانحطاط العالم الإسلامي في حياته المادية والأدبية في العصر الحديث وظهور أوروبا كقوة تريد أن تبسط هيمنتها على غيرها أكبر الأثر في تعالي الصيحات المدوية التي أطلقها أصحابها من أجل تنبيهه إلى واقعه المتردي والسعي من أجل نهوضه ونفظ سبات النوم عن جفونه لكي يستفيق من غفوته ويعي وظيفته في الحياة .

ويعد الشيخ رفاعة الطهطاوي من الرواد الأوائل في العالم العربي الإسلامي الذين دعوا إلى وجوب إعادة الاعتبار للتربية على اعتبارها تمثل حجر الزاوية لنهضة شعوب العالم الإسلامي حيث اعتبر التربية قرينة للترقي في الحضارة والعمران وإعطائها تعريفا دقيقا متكاملا في فلسفته و وقال بأنها " تنمية أعضاء المولود الحسية من ابتداء ولادته إلى بلوغه حد الكبر وتنمية روحه بالمعارف الدينية والمعيشية" [112].

وقدم لنا الطهطاوي مفهوما تربويا - مدنيا متقدما حيث ربط بين تقدم المجتمع وتقدم التربية فقال : " حسن تربية الأجيال ذكورا وإناثا وانتشار ذلك فيهم ، يترتب عليه حسن

---

[111]– محمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة ،ط (2) ،1975، ص 7.

[112]– محمد جميل منجنيقة ، فجر النهضة العربية :مرحلة الريادة الأولى دراسة نقدية في فكر الطهطاوي ،مجلة الفكر العربي ،عدد (39 / 40)،ص 54 .

تربية الهيئة المجتمعية (الاجتماعية) يعني الأمة ، فالأمة التي حسنت تربية أبنائها واستعدوا لنفع أوطانهم هي التي تعد أمة سعيدة وملة حميدة "[113]

ويكاد الشيخ الطهطاوي يكون من دون منازع رائد الدعوة إلى التعليم الإلزامي في العالم الإسلامي "وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة ، وأطفال المملكة ، ذكورا وإناثا ، من أوجب الواجبات كيف لا والتربية مطلوبة حتى في غير الآدمي "[114] .

أما الأستاذ الإمام محمد عبده فقد حث المسلمين على وجوب العناية بالتربية الإسلامية وتنشئة الأجيال المسلمة عليها ، محذرا إياهم من المخاطر الناجمة عن تعليم أبناء المسلمين في المدارس الأوربية المسيحية حيث لا يسمعون إلا ما يناقض عقائد دينهم الإسلامية ولا يرون إلا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي ، ويعيب عليهم التمسك بعرى الطاعة لأوليائهم ، ومما يزيد الأمر خطورة كون القبول ينفث إلى قلوبهم لأنه آت من أساتذتهم القائمين على تربيتهم بإذن آبائهم [115].

وأعاب الشيخ الكواكبي على المسلمين في زمانه عقم منظومتهم التربوية التي لم تعد قادرة على تقديم شيء للمجتمع حيث غلبت لغة العنف والتلقين على روح الحوار وحجة الإقناع وفي ذلك يقول "الإقناع في التربية ، خير من الترغيب فضلا عن الترهيب ، والتعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم خير من التعليم مع الوقار ، والتربية تربية الجسد وحده إلى سنتين هي وظيفة الأم وحدها ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابقة ، وهي وظيفة الأبوين

---

[113]- المرجع نفسه، ص 55.

[114]- محمد جميل منجنيقة، مرجع سابق، ص56 .

[115]- رشيد رضا ،تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبدو، ج 2 ، مطبعة المنارة، القاهرة، 1324هـ، ص 567 .

والعائلة معا ، ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس ،ولابد أن تصحب التربية بعد البلوغ الظروف المحيطة وتربية الإنسان نفسه "[116].

وقد حاول علماء الجزائر اقتفاء أثر الإمام الطهطاوي والشيخ محمد عبده في مصر ومحمود قبادو وخير الدين في تونس الذين وصفوا التقدم الذي بلغته الدول الأوربية ومقارنته بما كانت عليه الأمة الإسلامية أيام عزها من قوة ومناعة ثم ما أصابها بعد ذلك من وهن و انحطاط ورأوا أنه لا سبيل إلى تدارك هذا الضعف إلا بنشر التعليم والأخذ بأسباب التقدم[117].

خاصة وأن آلة الدمار الاستعمارية راحت تحاول محو كل ماله صلة من قريب و من بعيد بين الشعب ومنظومته التربوية الأصيلة حتى يتسنى لها إذابته في بوتقة الحضارة الغربية ف " النظام الاستعماري المسلط على الجزائر يرمي إلى إدماج الشعب الجزائري في المجموعة الفرنسية ، وحرمان الشباب الجزائري من تعلم اللغة العربية والتعاليم الإسلامية في المدارس الحكومية بدعوى أن الجزائر أصبحت جزءا لا يتجزأ من فرنسا "[118].

وبناء على ذلك قام المثقفون الجزائريون بسعي حثيث لإرساء دعائم مدرسة جزائرية أصيلة ومتفتحة إيمانا منهم بأن كسب رهان المستقبل في هذا العالم لا يكون إلا بالعلم والثقافة والتمكن من ابتكار العصر. فالشعب المثقف لا يستعمر في فكره وإرادته وأن استعمر في أرضه ، وقد قرن الشيخ الإبراهيمي حياة الأمم على المدارس وكأنه يريد أن يقول بأن الشعوب التي لا مدارس لها لا وجود لها في الحياة "حياة الأمم في هذه العصر المدارس، والمدرسة منبع العلم ومشرع العرفان وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة، فمن طلب هذا

[116]– علي لوح ، صوت النهضة العصروني في خطاب النهضة ،مجلة المستقبل العربي ،عدد 196 (6 – 1995) ،ص 105 .

[117]– عبد العزيز الساحلي، قضية التربية والتعليم من خلال فكر علماء الإصلاح، ط1، بيروت، 1995، ص 137 .

[118]– المرجع نفسه، ص 138.

النوع من الحياة من غير طريق العلم ذل ، ومن التمس الهداية إليه من غيرها ضل وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها شاهد على ذلك " ، ثم يضيف مبرزا قيمة المدرسة التي تحتل منزلة القلب من الجسد : " إن الأمم تبني ما تبني من القصور و تشيد ما تشيد من المصانع وتنسق ما تنسق من الحدائق و تحف كل ذلك بالسور المنيع فإن ذلك كله مدينة ضخمة جميلة لكنها بغير مدرسة عقد بلا واسطة أو جسم بلا قلب "[119] .

وقد كان هذا في الحقيقة ردا على الاستعمار الذي فرض اللغة الفرنسية لغة للتعليم و للثقافة و حارب اللغة العربية وحرمها وصارت بالنسبة للجزائري لغة ثانية ،إنها حقا مشكلة غريبة أن تكون لغة التعبير وأداة التعبير هي الفرنسية في بلد عربي إسلامي ،ولكن الظروف التاريخية هي التي فرضت هذا الواقع الشاذ ."[120].

وقد اعتبر رجال التربية مسألة العناية بالتربية والتعليم حجر الزاوية لإقامة نهضة جزائرية حديثة على اعتبار أن الأمم الراقية المزدهرة ما وصلت إلى ما وصلت إليه من تطور وازدهار في شتى الميادين إلا بفضل عنايتها بالمنظومة التربوية وفي ذلك يقول الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي: "يحق بنا أن لا نسكت عن التعليم فإنها النقطة الوحيدة التي عليها المعول في نهضتنا القومية ومبادئنا الاجتماعية ،فلو كان الشعب متشبعا بالعلوم لرأيت فلاحين يظاهرون المستعمرين الأوروبيين الذين ملكوا البلاد بفطنة وعمل ودهاء ، ولو كان الشعب متشبعا بالعلوم لرأيت مهندسين ومقاولين يتقاضون من المرتبات ما يتقاضوه المهندسون والمقاولون الأوربيون "[121].

---

[119]- تركى رابح ، الشيخ الإبراهيمي في ذكراه العشرين ،مجلة الدوحة، قطر ،أوت 1985 ،ص 15.

[120]- سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1976، ص 87.

[121]- أنظر جريدة النجاح، عدد 27، سنة 1923.

أما علي بو شقرون فقد ذهب إلى أن نشر التعليم عن طريق المدارس هو خير معين للمجتمع على النهوض بقوله: " فلا يعزب عن البال أن محاربة الأمية والقضاء على الجهل الذي عم أرجاء القطر وطغى على أهله أأكد واستئصاله من جذوره ألزم، فينبغي أن توجه أهم المجهودات إلى نشر التعليم وتعميمه بين مختلف طبقات الشعب ليشترك الكل في القيام بالواجب"[122].

ولما تأسست جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 م ، كان من بين أبرز مقاصدها نشر العلم وتعميمه في الأوساط الشعبية الجزائرية ، وقد تمحور مجهود المصلحين الجزائريين في مجال النهوض التربوي لرسم معالم المستقبل الزاهر للأمة الجزائرية على تحقيق الأهداف التالية :

1) التربية أساس التعليم .

2) إصلاح المناهج و محتوى البرامج التربوية و الإدارة المدرسية.

3) ترقية اللغة العربية.

4) تدريس التاريخ الوطني والقومي .

5) في سبيل تعليم أصلي و عصري .

[122]- علي محمد بو شقرون، بشائر النهضة الجزائرية الأمم برجالها، رواق المغاربة، الأزهر الشريف، جريدة صدى الصحراء، عدد 9(1/ 2/ 1926).

المحاضرة الحادية عشرة: التربية أساس التعليم

تعد التربية الصحيحة بمثابة حجر الزاوية في إقامة أي بلد حضاري، كما تعد انعكاسا لفلسفة الأمة وتطبيقها عمليا ، فهي المعبرة في نفس الوقت عن روحها ، ومنذ أن ظهر الإسلام في المشرق والمغرب تشكلت أسس التربية التي يبنى عليها المجتمع ،فلم يكد القرن الثاني الهجري يطلع حتى كان ثمة جهاز تربوي متغلغل في ناحية من نواحي المجتمع الإسلامي ابتداء من الكتاتيب التي تعلم الأطفال والصبيان، إلى المدارس العليا التي تعلم الكبار، وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية بسبب دقة هذا النظام وانتشاره، فكانت تلك التربية محققة لروح الإسلام[123].

وقد جمعت التربية الإسلامية منذ ظهور الإسلام بين تأديب النفس وتصفية الروح ، وتثقيف العقل وتقوية الجسم فهي تعتني بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون التضحية بأي نوع منها على حساب الآخر[124].

وعلى هذا الأساس بني المربون الجزائريون مشروعهم التربوي على أساس اقتران التربية بالتعليم ومراعاة البعد الروحي والمادي فيها معا.

التربية وقيم المجتمع : نظر المربون الجزائريون إلى التربية باعتبارها الوسيلة التي تعكس شخصية الأمة ومن خلالها يبدع و يبتكر ومن ثمة كانت مرجعيتهم في ذلك هو الموروث الحضاري الإسلامي ، ومن خلاله قبلوا أو رفضوا كل أشكال التربية والتعليم مع نظرة انفتاحية على واقعهم المعاش فهم يعيشون عصرهم ، وقد تجلى ذلك بداية في نظرة الشيخ ابن باديس لفلسفة التعليم الفرنسي التي حسبه تقصي كل حالة علاقة بشخصية الإنسان الجزائري الروحية والثقافية، فقد قال إمام إدارة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة

---

[123]– علي محمد بو شقرون، بشائر النهضة الجزائرية الأمم برجالها، مرجع سابق ، ص 9 .

[124]– محمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام ، مرجع سابق ،ص 9.

في هذا الصدد :"كان أبناؤنا من قبل لا يذهبون إلى أي من المدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف ، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين لدينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها [125].

ويحذر الشيخ ابن باديس من خطورة السياسة التربوية للاستعمار ،وينبه في وقت مبكر قبل غيره من الوطنيين إلى أهمية التربية والتعليم في النهوض بالأمم وقيادتها وتوجيهها الوجهة التي تراد لها ، ورأى أنه بفلسفته الغربية مثلما كان سببا في تطور الشعوب وترقية الإنسان فكريا وعمليا كان أيضا مصدر كوارث وجرائم سياسية واقتصادية و خيانات وراءها علماء نابغون من صانعي أسلحة الدمار الشامل و مهندسي سياسة الاستعمار وخططه .

وقد كشف الشيخ ابن بأديس عن انحراف بعض شيوخ الإسلام في زمانه و تقاعسهم عن واجب تعليم الأمة والدفاع عن الدين والوطن ، ولما لم تقبل اقتراحاته لإصلاح التعليم بالزيتونة ولم يستجب أساتذة التعليم الإسلامي الحكومي في الجزائر لدعوته إلى إنشاء كلية إسلامية بالعاصمة على غرار الأزهر والزيتونة ، واصل نشاطه الإصلاحي وتنفيذ خطته التربوية ووضع أمله في الشباب ، فاتجه إلى تعليم النشء لتكوين قادة المستقبل وحثهم على التمسك بقيم الإسلام والتسلح للحياة بأسلحتها وأولها العلم. و لم يقف عند هذا الحد بل دعاهم إلى هز الجامدين لبعث الحياة فيهم وإلى المغامرة والتضحية وخوض الخطوب وصدام الغاصبين الظالمين دفاعا عن الإسلام والجزائر[126]. وذهب الأستاذ الشيخ أحمد ابن

[125]- أحمد مريوش : دراسة النزعة العقلانية والوطنية في منظومة ابن باديس الإصلاحية ،مجلة المصادر ،عدد 7 / 1990 .

[126]- علي علواش، منهج الإصلاح عند الإمام ابن باديس بين السلفية والنهضة ، مرجع سابق، ص 330، 331 .

أبي زيد الأغواطي[127] إلى ضرورة وضع قادة الأمة لمسألة تعليم الشبيبة في أولويات عملهم الإصلاحي إذا ما أرادوا حقا الوصول إلى تحقيق النجاح في بناء نهضة " يجب على قادة الأمة الجزائرية النائمة والتي هي في حالة انتقال من طور الموت إلى الحياة ،يجب عليهم أن يبدأوا من حركاتهم على أساس متين يضمن لهم النجاح في مأموريتهم ويبعث فيهم الارتياح والاطمئنان لما أوجدته أياديهم البيضاء ، ألا وهو تعليم الشبيبة الناشئة لأن الشباب هم رجال المستقبل وهم حاملو لواء مجد أمتهم فيه ويجب عليهم زيادة على الدعوة الإصلاحية الاجتماعية أن يعتنوا بالتعليم عناية كبرى وأن يعملوا بقاعدة علمه و ربه وترك حبله على غاربه "[128].

ونبه الشيخ الإبراهيمي إلى ضرورة اليقظة و الاحتراس من النتائج الوخيمة التي نحصل عليها من التعلم في البلدان الغربية حيث تفقد خصوصياتنا الذاتية والوطنية " إن الغرب لا يعطينا إلا جزءا مما يأخذه منا، ولا يعطينا إلا ما يعود علينا بالوبال وقد أعنّاه على أنفسنا، فأصبح المهاجر منا إلى العلم يذهب بعقله الشرقي فينبذه هناك كأنه عقال على رأسه لا عقل في دماغه ثم يأتينا بعقل غربي ومعه امرأة تحرسه أن يزيغ"[129] .

---

[127]- من علماء الإصلاح في بلدة الأغواط، ولد سنة 1919 وتخرج من جامع الزيتونة سنة 1937،انتخب كاتبا مركزيا لجمعية العلماء سنة 1946، كما عمل مدرسا في مدارس جمعية العلماء ،وبعد الاستقلال شغل مديرا للمعهد الإسلامي بالأغواط و مديرا ومفتشا للشؤون الدينية و عضوا بالمجلس الإسلامي الاعلى ،توفي رحمه الله سنة 1994. أنظر منشورات فرع الاغواط لاتحاد الكتاب الجزائريين سنة 1999.

[128]- أحمد بن أبي زيد الأغواطي، التعليم عندنا وحاجته إلى توحيد ونظام ، مجلة الشهاب ،ج 1،عدد13 (14 مارس 1937).

[129]– تركى رابح ، الشيخ البشير الإبراهيمي ، مجلة الدوحة ،مرجع سابق ،ص 15.

وشدد الشيخ الإبراهيمي و هو يخاطب جمهورا من المعلمين الأحرار على وجوب العناية بالتربية قبل التعليم ذلك أن نجاح الثانية متوقف على الأولى" احرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم واجعلوها حاديكم في تربية هذا الجيل الصغير وهاديكم في تكوينه وهي: أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يأت في خيبته في الحياة من نقص في العلم وإنما خاب أكثر من نقص في الأخلاق ، فمنهما كانت الخيبة ومنهما كان الإخفاق "[130].

ودعا المربين إلى ضرورة الارتفاع إلى مستوى القدوة الحسنة لتلامذتهم فيكونوا متحلين بالخلال الحسنة مما يجعل تلامذتهم يقتدون بهم: " احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال ، فطبقا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال ،فإن الناشئ الصغير مرهف الحس طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها ، ولا ينالها اهتمامكم وإنه قوي الإدراك للمعايب والكمالات فإذا زينتم له الصدق فكونوا صادقين ، وإذا أحسنتم له الصبر فكونوا من الصابرين ، واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشا في نفوسكم فهو زائل، و إن كل سحر تنفذونه لاستنزالهم غير الصدق فهو باطل إلا أن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة و أما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة "[131].

[130]- الشيخ البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2، مرجع سابق ،ص 290.

[131]- المرجع نفسه، ج2، ص 291.

والأكثر من هذا الذي ذكرناه يحمل الشيخ الإبراهيمي معشر المعلمين مسؤولية محاربة الأمية وغرس الفضائل في الناشئة وتعويدها على القيام بشعائرها الدينية فيقول :"إن حاجتنا إليكم هي أن تنقذوا هذا الجيل الناشئ من الأمية التي ضربت بالشلل على مواهب آبائهم ، وكانت نقصا لا يعوض في إنسانيتهم ثم كانت سببا فيما يعانونه من شقاء ، وأن تحببوا لهم العربية وتزينونها في قلوبهم ، وأن تطيعوهم على التآخي والتعاون على الخير ، وأن تربوهم على الفضيلة الإسلامية التي هي مناط الشرف و الكرامة والكمال، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغارا حتى نأمن تضييعهم كبارا ،وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم وحب الأم والأب وحب بعضهم بعضا وحب الله ورسوله والإسلام قبل ذلك ومعه وبعده لا يغير كم ضعف حظكم من العلم إذا وفر حظكم من الأخلاق الفاضلة، فإن أمتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل ، إن حاجتها إلى الفضائل أشد وأوكد من حاجتها إلى العلم لأنها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم ولكن من نقص في الأخلاق "[132].

ولأن السياسة التعليمية الفرنسية كانت قائمة على فلسفتها اللائكية الإلحادية فقد حث الشيخ الإبراهيمي المعلمين على التصدي لموجة الإلحاد وذلك بالتمسك بالقيم الإسلامية سلوكا ومعاملة :" وفي وطنكم موجة من الإلحاد جاءت في ركاب الثقافة الغربية ،و مكن لها القصد الصحيح من غايات الاستعمار، ومهد لها في نفوس هذا الجيل جهله لحقائق الإسلام وضعف صلته بالله ، وإنّ تساهلكم في إقامة شعائر الدين واستخفافكم بأحكامه معين على تفشي الإلحاد في الجيل الجديد الذي تقومون على تربيته[133].

[132]- الشيخ البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2، مرجع سابق ، ص 296 .

[133]- المرجع نفسه، ص 298.

ودعاهم الشيخ الإبراهيمي إلى وجوب ربط العلم بالحياة و عدم الجمود على تلقين القواعد النحوية: " امزجوا لهم العلم بالحياة والحياة بالعلم يأت التركيب بعجيبته ، ولا تعمروا أوقاتهم كلها بالقواعد فإن العكوف على القواعد هو الذي صير علماءنا مثل" القواعد " وإنما القواعد أساس ، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتم البناء ؟ ربوهم على أن يعيشوا بالروح في ذلك الجو المشرق بالإسلام و آدابه وتاريخه ورجاله ، ذلك الجو الذي يستوي ماضيه ومستقبله في أنهما طرفا حق لا يشوهه بالباطل ، وحشيتا جديد لا تبليه الزمن ، وعلى أن يعيشوا بالبدن في هذا الزمن الذي يدين بالقوة ويدل بالبأس وعلى أن يعيشوا بالروح في ذلك الزمن المشرق العامر بالحق والخير والفضيلة . وعلى أن تلبسوهم لبوس عصرهم الذي يبني الحياة على قاعدتين:" إن لم تكن أكلا كنت مأكولا" و " كن قويا تحترم "[134].

ويصيب الشيخ الإبراهيمي كبد الحقيقة عندما يحث على ضرورة توحيد فلسفة التعليم التي تؤدي لا محالة إلى توحيد المشاعر الدينية والوطنية ، وبذلك تكون المدرسة العربية الحرة قد هيأت جيلا قادرا على الصمود و مواجهة التصدي الاستعماري :" و غايات الغايات من التربية وهي توحيد النشء الجديد في أفكاره و مشاربه و ضبط نوازعه المضطربة ، وتصحيح نظراته إلى الحياة ونقله من ذلك الاضطراب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه إلى مضطرب أوسع منه دائرة وأرحب أفقا وأصح أساسا ، فإذا تم ذلك وانتهى إلى مداه طمعنا أن تخرج لنا المدرسة جيلا متلائم الأذواق متحد المشارب ، مضبوط النزعات ، ينظر إلى الحياة كما هي، نظرة واحدة ، ويسعى في طلبها بإرادة متحدة ، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة في اتجاه واحد.

[134]- المرجع نفسه، ص 300.

وغاية التعليم بالنسبة للنشء هي تفقيهه في دينه ولغته وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه ،تلك الأصول التي جهلها آباؤه فشقوا بجهلها وأصبحوا غرباء في العالم ، مقطوعين عنه لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم أحد." [135]

وقد حذا الشيخ أبو اليقظان حذو الشيخ الإبراهيمي في إبراز أهمية التربية التي تعد عنده الطريق الصحيح نحو عملية البناء في كل الميادين وعلى مختلف الأصعدة فتحت عنوان " نحن إلى التربية أحوج " ، راح الأستاذ أبو اليقظان يؤكد على ضرورة ملازمة التربية للتعليم فيقول : "إذا ما أردنا فعلا لعلومنا وأعمالنا ثمارا ونتائج تعود بالمنفعة على المجتمع فعلينا بالتربية فإنّ عديم التربية الصحيحة لا يعرف كيف يستفيد من مواهبه فلا يعرف كيف يستفيد من جسمه ولا من عقله ولا من ذكائه ، ولا من علمه ولا من جاهه ، ولا من ماله ،بل كثيرا ما تكون هذه القوات وبالا عليه وعلى من له علاقة به ، وهي له كالسيف حاد الطرفين في يد صبي ،ولكن بالتربية الصحيحة يعرف كيف يستفيد الصحيح من صحته ، والعاقل من عقله ، والذكي من ذكائه والعالم من علمه ، والوجيه من جاهه و الغنيّ من ماله ... الخ ، كما يعرف كيف يفيد غيره . ".[136]

ثم يضيف مؤكدا على أن ما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع .فإذا كانت الأمة على حظ عظيم من التربية نالت مكانتها التي تستحقها بين الأمم ، وان أهملت تربية أبنائها صارت في عداد الأمم الضائعة" وما قلناه بالنسبة للفرد ينطبق على المجتمع فالأمة إذا

[135]– الشيخ البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2 ، مرجع سابق، ص 303 – 304.

[136]– الشيخ أبو اليقظان ، نحن إلى التربية أحوج ، جريدة وادي ميزاب ،عدد 2 (18 أكتوبر 1926).

كانت عديمة التربية العمومية ،فهي وإن كانت لها مواهب ومزايا لكنها لا تعرف كيف تستفيد منها بل تبقى عاطلة فيها وكامنة كمون التبر في بطن المعدن ، لا يعرف كيف يستفيد منه مالكه ما دام لم يعرف طرق التعدين ولم يقدر على استخراجه ،نعم إذا تربت تربية صحيحة عمومية فإنها تكون جديرة بالاستفادة من مواهبها العمومية حتى تأخذ شكلا ممتازا بين سائر الأمم "[137].

ويكشف الشيخ أبو اليقظان عن ذلك التعليم الأكاديمي المجرد من التربية كيف يكون وبالا على صاحبه و على المجتمع ويعتبر بذلك عديم الجدوى "يتعلم متعلم فيخوض في بحار العلوم ويحلق في أجوائها ،فيتحصل على أنواع الشهادات ويتنسم وظائف عالية ويلقب بألقاب ضخمة ، ولكنك هل تجد له من التربية الصحيحة ما يستحق به ولو الشهادة الابتدائية ،وهل تجد منه الفضيلة ما ترقيه من الفقه والنزاهة و الاستقامة ؟" [138]

ويشفق لحال هذه الأمة التي تعليمها بلا تربية كيف يكون حالها عندما ينعدم هذا التعليم بالمرة أو يكون الحظ منه قليلا ، داعيا بالعودة إلى مرجعية الأمة المتعلقة في الإسلام وقيمه السمحة في تربية أبناء الأمة التربية الصحيحة " إذا كانت هذه عاقبة من يتبع مناهج التعليم الثقافية إلى النهاية فما بالك بحال من انقطع وسط الطريق ؟ وكان تعليمه بأسلوب عقيم مشوش ؟ ولم يلج هو هذا الباب بالمرة ؟ كأني بالقارئ الكريم يتساءل : هل يوجد ذلك النوع من التربية ؟ وأين يوجد ذلك النوع من التربية ؟ ومن الواضع له ؟. ما أقوله : إذا أحسن الإصغاء ، نعم يوجد ذلك في الإسلام ضمن القرآن المجيد والسنة الصحيحة منذ ثلاثة عشر قرنا والواضع لقواعده هو الله ورسوله "[139].

---

[137]–المرجع نفسه.

[138]– المرجع نفسه.

[139]– الشيخ أبو اليقظان ، نحن إلى التربية أحوج، مرجع سابق.

ويستحضر الشيخ أبوا ليقظان مشاهد تاريخية لكي يبيّن لنا بأن نور الحضارة العربية الإسلامية ما كان له أن يبزغ ، لولا تلك التربية الصحيحة القائمة على تعاليم الدين الإسلامي: " وإنّ هذا النوع من التربية قد وضع الله ورسوله قواعده في القرآن الكريم والسنة القويمة ،وقد رأينا شيئا من أثره في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، وقد درج على ذلك السلف الصالح من بعدهم ونسجوا على منوالهم فوصلوا ما وصلوا وتركوا من الآثار الخالدة مثل ما تركوا.

ثم لما تغيرت الأوضاع وأساليب التربية و أصبح التعليم صناعيا جافا خاليا من روح التربية والتهذيب الإسلامي، أجدبت النفوس بعد الاخضرار وقطعت القلوب بعد الاخضرار والازدهار فتقلص ظل العدالة من الأرض ، ومالت شمس السعادة الحقيقية نحو الغروب فأصبح العالم في ظلام حالك ، ورجع إليه كل ما كان قبل النبوة من المفاسد والمظالم والشرور .وهل لهذا الليل من نهار ؟ وهل تعود تلك الشمس من مشرقها ؟ "[140].

ولا يرى الشيخ أبو اليقظان مستقبل أمّته بعين التشاؤم بل يراه بعين التفاؤل ، حيث يمكن للأمّة أن تستعيد عافيتها ويعود إليها رشدها وسعادتها إذا عادت إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة فتتخذهما منهاجا قويما في التعليم " فلو يتخذ قادة الأفكار وسواس العقول من القرآن والسنة منهاجا يكون أساسا للتربية والتهذيب هو القاعدة العملية في الحياة وتنفذه بكل دقة وتحميه بكل ما لديها من القوة أفلا تشرق تلك الشمس المنشودة ؟ أفلا ينكشف هذا الظلام على البشر ؟ فإذا ما أسس منهاج التعليم على قاعدة الأخوة والمساواة والحب والولاء في الله والإخلاص والإنصاف والتواضع أفلا يعود للعالم شبابه ؟ فيعيش البشر على بساط الأخوة والصفا في سلام عام و أمن شامل وعز وسعادة ورخاء لكل امرئ ما

[140]- المرجع نفسه

لأخيه وعليه ما عليه من الحقوق والواجبات . فينكب كل على عمله حسب فطرته واستعداده ولا يتعدى مداره فهل من سعادة فوق هذه غير تلك السعادة الخالدة ؟[141].

ويرى الشيخ أبو اليقظان في الأخير أن المدنية الحديثة القائمة على المادة والزاهدة في القيم الروحية والتربوية صارت لعنة على الإنسانية وسببت لها من المآسي أكثر مما أسعدتها:" التعليم الفني الصناعي المجرد من التربية والتهذيب فهو وإن بلغ من الرقي والنظام ما بلغ فلا ينتج إلا أبناء المادة الخالية من روح العفة والفضيلة وحب المادة ، كما لا يخفى منار القلاقل والحروب وشقاء العالم في كل زمان ومكان .

إن غالب من يقترف الجرائم والموبقات الفردية والاجتماعية لم يقترفها وهو جاهل لها وإنما يفتقدها وهو عالم بأنها جريمة ، ولكن لم ينفعه علمه لأن علمه خال من روح التربية و التهذيب الصحيحين بل كثيرا ما زاده علمه حذق و مهارة بأساليب المكر و الخداع ،فيكون علمه في هذه الصورة آلة فتاكة ووبالا عاما فأنتج عكس المقصود "[142] .

وعليه يتوجب على المصلحين التفكير في التربية قبل الشروع في التعليم :" وقبل أن يهتم المصلحون ببث التعليم الصناعي ،يجب أن يصرفوا همهم إلى تربية النفوس وتهذيب الأخلاق ، فليهيئا للعلوم تربية زكية حتى تنبت فيها نباتا حسنا وتثمر للأمة أثمار يانعة وليسلكوا بالنشأة مسلك الأم الحاذقة برضيعها "[143].

ويتوافق هذا الطرح القائم على أن التربية هي أساس التعليم ، مع ما جاء به الشيخ محمد بن بكير الذي أكد على مبدأ أن التربية التي تستلهم روحها من قيم الإسلام والعلم هي التي تعيد للمسلمين مجدهم وعزتهم وتلحقهم بركب التقدم " ألا فليسع المسلمون في تربية

---

[141]-- المرجع نفسه.

[142]- الشيخ أبو اليقظان، نحن إلى التربية أحوج، مرجع سابق.

[143]- المرجع نفسه.

نشأتهم تربية مطابقة لروح العلم والدين إن أرادوا حقيقة استرجاع مجدهم و إعادة ماضي تراثهم ، فالأمة بأبنائها والبلاد برجالها فإذا كانوا مثال العزة فلا ريب وأن تكون عزيزة كاملة." [144]

[144]– الشيخ محمد بن بكير ، التربية سبب رقي الأمّة ، جريدة وادي ميزاب، عدد22 ،(4/ 3/ 1927).

المحاضرة الثانية عشرة: التربية الوطنية والدينية:

لم يكتف المصلحون بالتأكيد على ضرورة ملازمة التربية الصحيحة للتعليم حتى تكون ثمار لذلك، بل راحوا يؤكدون كذلك على البعد القومي لهذه التربية من منطلق الحرص على تنمية الشعور الوطني في نفوس الناشئة خاصة وعامة الناس بصفة عامة حتى يتشكل من ثمة وعي وإدراك بضرورة الانتماء إلى المجموعة الوطنية والخروج من دائرة الانتماء القبلي والشعائري الضيق .

الأمر الذي يجعلنا ندرك حقيقة بأن البعد التربوي في المؤسسات التعليمية ليس التحصيل العلمي وتعزيز البعد التنظيمي في المعركة منذ الاستعمار، فقد كتب في هذا الصدد الأستاذ إسماعيل العربي يدعو إلى تربية وطنية في مضامينها وفلسفتها لتفويض السياسة الاستعمارية القائمة على مبدأ (فرق تسد)ويقول في هذا الصدد: "ليست وحدة الشعور الوطني والتفكير السياسي هو الأمر الوحيد الذي يمكن للتربية القومية أن تعالجه بل إن كثيرا من المشكلات الاجتماعية التي لا تزال البلاد تعاني منها في أضرارها لا يمكن أن تجد حلولا حاسمة ما لم تكن تلك الحلول نتيجة لعمل مشترك قائم على أساس التربية القومية .

والتربية القومية هي التي يرجع إليها الفضل في تحويل تفكير الإنسان وجعل اهتمامه يتعدى حدود العائلة إلى القبيلة ثم الأمة كلها ، وهي خليقة بأن توسع أفق تفكيره بحيث يتجه إلى خدمة مبادئ قومية في نطاق سياسي و اقتصادي وثقافي واسع ، كما هو الشأن بالنسبة للولايات المتحدة .

ويستمد منهاج التربية القومية عنده من عناصر كثيرة أهمها:

1- الدين .

2- اللغة.

3- وحدة الظروف السياسية و الاقتصادية.[145]

كما نظر المصلحون إلى هذه التربية الوطنية على أنها الحصن المنيع للناشئة الجزائرية حتى لا تتعرض لعملية الاحتواء من قبل التعليم اللائكي العلماني ، والتعليم التبشيري لما كانت الوسائل التربوية الجزائرية تكاد تكون معدومة ، فقد اعتبر " المعلم " المحرك الأساسي في العملية التربوية فإن كان صالحا ووطنيا صلحت معه الأجيال و تشبعت بالروح الوطنية وإن كان فاشلا ولا يتملك أدنى حس وطني ، أتت الأجيال على يديه فاشلة مخيبة لأعمال الشعب والوطن.

فقد أبرز الأستاذ ابن العابد الجلالي الدور الريادي للمعلم في العملية التربوية فكتب يقول :" يجب على المعلم أن يمحو من ذهنه كل اعتبار غير اعتبار كونه أبا يحمل صفات الأب كاملة من حب وشفقة وتحمل وتقدير النتيجة الطبيعية لكل عاطفة من هذه العواطف أمر لابد منه لأن كلا منهما أصل من أصول الأخلاق الكاملة التي تجعل من المعلم الذي يحملها قوة دافعة لأبنائه في سبيل العمل لصالح دينهم ، ولغتهم ، ووطنهم ، وتجعل من أذهان أبنائه صفحات أنصع وأكثر قبولا لصورة الكمالات النفسية ".[146]

وحتى يقدر المعلم الجزائري على أداء واجبه على أكمل وجه توجب عليه أن يتحلى بالقيم الوطنية المتمثلة في:

1) العربية و العروبة ، 2) الإسلام، 3) الإيمان بالجزائر.

و قد عكس ابن العابد هيامه بالجزائر في مقالاته وأشعاره حيث لم يخل نشيد من أناشيده التي نظمها للأطفال من كلمة الوطن " الجزائر " يقول في نشيده " الفتي "

[145]- إسماعيل العربي ،مناهج التربية القومية ،جريدة البصائر ،عدد 93 (أكتوبر 1949) .

[146]- محمد الطيب العلوي، محمد بن العايد الجيلالي العربي ، مجلة الثقافة عدد 7، 8 مارس 1995 م ، ص 124 .

جزائر العز أسلمي دون بلائك دمي

هذا فؤادي وفمي وانتظري كلي غدا

بنا الجزائر تعود كما تبدت للوجود

أفقا يغض بالسعود ويملأ الأرض ندى.[147]

بل إن الشاعر محمد العيد يرى في إهمال التربية المدرسية السبب الرئيسي في انحطاط العالم الإسلامي، ومن ثمة دعا المسلمين إلى ضرورة الاعتناء بالتربية بقوله:" فعلى التربية فليقبل المسلمون وليعتنوا على الأخص بالتربية المدرسية وليضعوا لها المناهج المدققة والبرامج الموفقة، فما أوتي المسلمون إلا من ناحية إهمالهم لهذا الجانب وما وفق غيرهم إلا بما تداولوا فيه من رأي سديد وقول مفيد و عمل رشيد "[148].

ويؤكد على هذا المنهج التربوي ويعضده أيضا الأستاذ علي بن حالة هو الآخر حيث نظر إلى مستقبل البلاد على أنه مرهون بحسن إعداد وتربية الناشئة، ولذلك دعا معشر المعلمين لكي يحسنوا أداء وظيفتهم على أكمل وجه فهم قدوة تلامذتهم الذين يمكن أن نغرس فيهم الفضائل وروح الانتقام ما داموا صغارا أما إذا صاروا كبارا فيكاد يصير الأمر مستحيلا فمن شب على شيء شاب عليه إذ يؤكد : " إنه يصعب إصلاح المجتمع إذا أهملنا تربيته تربية أحداثنا لأنهم مجتمع المستقبل ، ولأن الإنسان يصعب عليه إصلاح نفسه إذا ما نشأ على القواعد القبيحة "[149] .

داعيا المعلمين لكي يرتفعوا إلى مستوى القدوة الحسنة لتلامذتهم فيقول : " ومما يؤثر على التلميذ الصبي أخلاق معلمه ، فإن أخلاق المعلم ينبغي جدا أن تكون حسنة وإلّا فسد

---

[147]- محمد الطيب العلوي، محمد بن العايد الجيلالي العربي، مرجع سابق، ص 126.

[148]- محمد العيد آل خليفة، التربية المدرسية وأثرها في المجتمع، مجلة البصائر، عدد 2، جانفي 1936 .

[149]- علي بن حالة ، تهذيب الأحداث وإصلاح المستقبل ، جريدة المنار عدد (27 رجب 1370 هـ- 4 ماي 1951 م).

تلاميذه ورمى بهم في هوة الرذائل ، وأما الصبي الذي يكون فيه رعاية المربي قبل أن تتكون فيه قوة الإدراك كلها ، وإنما بعضها ، فإنه لا ينبغي أن يخوض ببعض الوحوش أو المخلوقات الوهمية أو بأي شيء كان ،فينشأ جبانا رعديدا وهذا عيب كبير في حق الرجل وفيه رذيلتان : رذيلة عملية سلبية وهي الجبن ورذيلة نفسية وهي اعتقاده أن الجبن ينجيه من الأخطار "[150].

فيقول بعد ذلك عن أثر التربية في نهضة البلاد : " إن الإنسان لا يمكن أن يجد زاجرا - وهو صوت الضمير ـ إلا إذا تربى في صغره وقوم تقويما ، ولا سبيل إلى تأثير هذه التربية تأثيرا قويا في نفس الطفل إلا إذا قرنت بالتعليم ودامت معه حتى يجتاز المرحلة الأولى من حياته ويشب عن طوقه، أما إذا فارقته فإنه لا نؤمن عليه سوء الأخلاق، ولذا ينبغي أن نعير للتربية اهتماما في تعليمنا لأبنائنا حتى تستدعيهم البلاد "[151].

أما أحد الكتّاب بجريدة "المنار" فقد أكد على وجوب أن تكون مرجعية التربية والتعليم للجزائريين نابعة من قيم الأمة ومستوحاة من تاريخها الحافل بالأمجاد و البطولات وفي هذا البعد الوطني والقومي في التربية فيقول:" أما أهداف التربية والتعليم بالجزائر فيجب أن تستوحى من تعاليم الإسلام وتستند إلى تقاليد الوطن التاريخية وتلائم المناهج السياسية لشعب عربي مسلم ،وتساعد على تحقيق أمانته القومية من وحدة عربية شاملة خالصة لا تشوبها شائبة الامتزاج والاختلاط بالمبادئ الاستعمارية التي ما تزال تسود الوضع الحالي للبلاد وقتنا هذا "[152].

---

[150]- المرجع نفسه.

[151]- المرجع نفسه.

[152]- عبد المجيد بن عدّة، أهدافنا من التربية والتعليم ، جريدة المنار سنة أولى ، عدد 13 ، جمعة 6 ربيع الثاني 1371 هـ / 4 جانفي 1952 م) .

داعيا في الأخير إلى الثورة على الأمية من خلال بناء المدارس وتوفير المعلمين الأكفاء :" إن الحملة لمكافحة الأمية يجب أن تشترك في إثارتها وإعداد العدة لها جميع الهيئات الثقافية ، والوسيلة لذلك هي تأسيس المدارس في جميع المدن والقرى وتوحيد المناهج والتوجيهات المسلكية وحين اختيار المعلمين الذين ينتدبون للقيام بهذا الواجب الوطني ذي الأثر العظيم في الاتجاه الوطني العام "[153].

بناء على ما تقدم نقول بأن المصلحين الجزائريين قد أدركوا منذ وقت مبكر أن التعليم من دون تربية صحيحة لا يمكن أن يحقق الأهداف السامية المتوخاة منه ،وهو تكوين المواطن الصالح الحريص على خدمة وطنه و الدفاع عن دينه ،ومن ثمة نجد دعوتهم قد مست كل جوانب التربية الدينية ، والنفسية والمدنية والوطنية وهو إدراك ذو بعد شمولي لمفهوم التربية قديما وحديثا .

وهي متوافقة في ذلك مع جوهر ما جاء في فلسفة التربية الإسلامية القائمة [154] على العناية بالجانب المادي والحسي في الإنسان " بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم ، فهي تعتني بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون تضحية بأي نوع منها على حساب الأخر، فمن المعروف أن النبي عليه الصلاة والسلام افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، ومن وصايا عمر بن الخطاب أن يعلموا أبناءهم السباحة و الرماية "[155].

---

[153]- المرجع نفسه.

[154]- يرى القابسي أن تعليم الوالد لولده القرآن الكريم ليس واجبا دينيا فقط فبالإضافة إلى ذلك نظر إلى القضية كمسعى يكسب الفضائل ويحقق المراتب العالية عند الله، أنظر عيد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي، دار اقرأ، بيروت، ط1، بيروت، 1985، ص79.

[155]- محمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، مرجع سابق، ص 9. ،

كما أن الحرص على جعل التربية أساس التعليم كقاعدة في تأسيس المشروع التربوي هو الوقوف في وجه المدرسة التبشيرية التي عملت على استقطاب أكبر عدد من أطفال المسلمين إليها فقد كانت " الخدمات التعليمية التي قدمها المبشرون لأبناء الجزائريين تهدف إلى تحقيق غاية واحدة هي تنصير الأطفال الذين يؤمون المدارس التبشيرية ، وما البرامج التعليمية التي طبقوها في مدارسهم سوى إحدى الوسائل التي بواسطتها سعوا إلى تحقيق ذلك الغرض[156].

وإذا كان هذا المسعى المقصود منه بناء الشخصية الوطنية بناء سليما فإنه من دون شك لا يمكن أن يتحقق ذلك ويكتب له النجاح ما لم يدعم ذلك بإعادة النظر في المناهج المدرسية ومحتوى برامجها حتى تكون المحصلة التربوية عطاء و أداء وهذا ما حاول المصلحون الجزائريون أن يبرزوه من خلال اطروحاتهم و اجتهدا تهم .

إذن كان مسعى الجزائريين التربوي لتكريس المشروع النهضوي قد تمحور على النقاط الأساسية بالدعوة إلى ترسيخها ، أو بضرورة إعادة النظر فيها أو البحث على ترقيتها والدفاع عنها، وتأصيلها، و عصرنتها ، حيث دعا المربون إلى ضرورة السعي لبناء الشخصية الجزائرية وتكوين النشء الجديد على أسس المقومات الحضارية للمجتمع الجزائري القائمة على الدين الإسلامي ولغته العربية، وانتمائه للعالم العربي الإسلامي . فغاية التعليم هي:

_تفقيه الإنسان الجزائري في دينه ولغته وتعريفه بنفسه وتاريخه.

-العناية بالنشء الجزائري الجديد بتربيته تربية إسلامية صحيحة، تجعل منه قادرا على الدفاع على وطنه وتراثه الحضاري.

[156]- محمد الطاهر وعلي ، التعليم التبشيري في الجزائر، منشورات دحلب ،د.ت، ص 134 .

- كما ألح المهتمون بالتربية والتعليم على ضرورة مراجعة المناهج التربوية وأساليب التدريس العقيمة في الكتاتيب والزوايا والمدارس العربية الحرة.

- الدعوة إلى ترقية اللغة العربية وإبراز مفاخرها ومكانتها بين اللغات كانت تستهدف الدفاع عنها وحمايتها من البطش الاستعماري الذي اعتبرها غريبة في عقر دارها وبين ذويها ، كما كانت الرغبة في تصويرها تصويرا علميا نابعا من قناعة راسخة بأنها ليست فقط مقوم أساسي من مقومات الشخصية الوطنية ولكنها أيضا لغة علم و إبداع وابتكار وأداة للثقافة المعاصرة .

- التأكيد على اللغة العربية الفصحى بالوقوف في وجه الدعوات الهدامة التي كانت تشجع وتدعم اللهجات المحلية مكان اللغة القومية .

- لم تكن الدعوة إلى نشر وتدعيم اللغة العربية إقصاء للفرنسية و هذا ما يعكس بعد النظر عند المربين عكس المفرنسين الذين كانوا يضيقون ذرعا من اتساع دائرة اللغة العربية في المؤسسات التربوية .

- نلمس في ملامح هذا المشروع التربوي الجمع بين التعليم الأصلي الذي يعزز البعد الوطني والحضاري للأمة، والتعليم العصري لمواكبة العصر وترقية الأمة في كل مجالات الحياة الأدبية والصناعية والعلمية.

ـ إنّ معركة التعريب لم تكن وليدة الاستقلال بل أنها تعود جذورها وأصولها إلى الفترة الاستعمارية.

-اعتبار تدريس مادة التاريخ وسيلة لتكوين الإنسان الوطني وليس غاية في حد ذاتها.

المحاضرة الثالثة عشرة: في سبيل تعليم أصلي ومعاصر

كان إيمان المربين الجزائريين كبيرا بضرورة إرساء دعائم نهضة علمية في البلاد تتكئ على القيم الأصيلة للأمة من جهة وتنفتح على الحداثة الغربية من جهة أخرى ، ولذلك نجد جهودهم قد تركزت من البداية على الدعوة إلى تعليم متوازن ومتكامل في أسسه ومحتواه والفلسفة التي تشكل بعده ،لا يغلب جانب على آخر كما يقول جورج قرم : " إنّ التفاعل الإيجابي والإثراء المتبادل من جراء التعدد و الاختلاف وذلك بالنظر الحيادي العلمي المجرد من العواطف إلى الثقافات الأخرى من شأنه أن يعيد إلى هذه الأمّة مناخا فكريا وتقنيا يسمح للمجتمع العربي باستفادة حيوية مستقلة ذاتيا عن المقارنة بالحضارة الأخرى ،هذا هو في نظري الطريق الوحيد إلى استفاقة حضارية جديدة نتمكن من خلالها من تبديد الضباب الكثيف الذي يحيط بحياتنا الفكرية ،عندئذ ستظهر تدريجيا الوسائل التنموية الأصيلة لتأمين الازدهار المجتمعي المتوازن والمتماسك لاستعادة مكانتنا في ركب الحضارة الإنسانية."[157].

وقد تمحورت خطابات النهضويين في هذه المسألة على إبراز أهميته من خلال :

1- دعوة جديدة صحيحة للعلم الذي لا فرق فيه بين العلوم النقلية والعقلية فكلاهما مكمل للآخر والغاية من الاثنين سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

2- الحث وبذل قصارى الجهد للحاق بركب الأمم الراقية وذلك بالانتفاع من علوم و معارف العصر الضرورية لأية أمّة تريد أن تحيا عصرها سيدة نفسها ماسكة لزمام أمورها في شتى الميادين من دون تبعية ولا هيمنة عليها .

[157]- جورج قرم ،نحو استقامة حضارية جديدة، مجلة دراسات عربية ،السنة 16، عدد3 (1980) ،ص 57.

3- تكوين الإنسان الجزائري العصري في فكره والأصيل في شخصيته ومرجعيته الحضارية .

أ-إبراز أهمية التكامل بين العلوم النقلية والعقلية :

أدرك المربون الجزائريون أن بقاء التعليم على ما هو عليه من جمود في محتواه وبرامجه وطرائق إيصاله عقيم وعديم الجدوى، ولا يكرس سوى مزيدا من التخلف والانحطاط بالنسبة للأمّة ،ومن ثمة يزيد من تخديرها وغطّها في سباتها العميق في الوقت الذي أصبح فيه الغرب مهيمنا بعلمه العصري ومبتكراته المادية والأدبية مسيطرا على دقة كل هذا العالم القديم والجديد ومنه العالم العربي الإسلامي.

والسؤال الملح الذي يطرح نفسه آنذاك:" هل من سبيل للحاق بهذا الغرب المتعلم والمصنّع؟".

فكان أن ثار المثقفون الجزائريون على غرار كل مثقفي العالم العربي الإسلامي على هذا الوضع التعليمي المتردي ودعوا إلى إقامة مدرسة جزائرية أصيلة ومتفتحة حتى يكون ثمّة ضمان لنتاج هذه المدرسة من حيث الانتماء والعطاء واقتفاء لأثر رواد النهضة العربية في القرن 19 م الذين أدركوا أهمية التعليم المدرسي في عملية التحول الاجتماعي وترقية الأمة في مختلف النواحي ، فقد كان شغف الجزائريين كبيرا بأهمية التعليم الأصيل والعصري الذي لا يكمن الهدف المتوخى منه في الترقية المادية فحسب بل وأيضا في تكوين المواطن الصالح الذي له غيرة على وطنه وشخصيته ، فلا يمكن بالتعليم العصري وحده أن نبني نهضة وطنية ،لذلك قرنه المصلحون الجزائريون بالتعليم الأصيل للحيلولة دون تسرب الأفكار الإلحادية واللائكية فتهدم كيان الأمة وتقوض أركانه ودعائمه، وهذا ما نجده متجليا بكل وضوح في كلمة الشيخ ابن باديس للطلاب الذين تكونوا في المدارس الفرنسية يحثهم على

إسعاد أمّتهم وخدمتها وعدم إدارة ظهورهم لقيمها الحضارية فيقول : " عليكم أن تلتفتوا إلى أمّتكم فتنتشلوها مما هي فيه بما عندكم من علم وما كسبتم من خبرة ،محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في ركب المدنية الحقّة بين الأمم ،وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الإنسانية لأنّها من أمّة عظيمة من أممها ،ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم من كل أمّة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا "[158] .

وقد طبق الأستاذ ابن باديس في منهجه التربوي عملية التكامل والمزاوجة بين العلوم النقلية والعلوم العقلية فقد جاء في قانون جمعية التربية والتعليم التي أسسها بقسنطينة أن مقصودها هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية و الفرنسوية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين [159].

أما الأستاذ الشرفاوي[160] فقد أحس بوعيه الثاقب أن المسلمين الجزائريين الذين يحوزون على العلوم النقلية الإسلامية ينقصهم العلم العصري الذي لا غني عنه لولوج الحضارة والمدنية ،ولذلك نبّه مع بداية العشرينات إلى ضرورة الأخذ من الغرب العلوم التي نحن في حاجة إليها ،لا أن نأخذ كل شيء قد لا يتوافق مع قيمنا الحضارية وفي ذلك يقول :" إننا لا نريد العلوم الدينية لأنها موجودة عندنا ، وإنما نريد العلوم الصناعية التي هجرت في البلاد الإسلامية في هذا الزمن ،وهي مرقاة في كل عصر كالعلوم الميكانيكية والهندسية والكيميائية والتجارية وسائر الصناعات ،فعلى أعيان الأمة وأغنيائها ومصلحيها أن يجتهدوا

---

[158]- عبد القادر فوضيل ومحمد الصالح رمضان ،إمام الجزائر عيد الحميد بن باديس . دار الأمّة الجزائر، ط (1) 1998، ص 169 .

[159]- أنظر مجلة الشهاب ،ج 2 ،م 7 ،ص 115.

[160]- عالم جزائري ولد بمنطقة القبائل سنة 1880 تعلم بمسقط رأسه ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف ،وفي سنة 1933 عاد إلى أرض الوطن حيث انصب للتدريس بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي له أفكار إصلاحية كان ينشرها على شكل مقالات في جريدة البصائر ،كما يلقيها على شكل دروس، توفي سنة 1945، انظر مجلة الثقافة ،عدد 22 (1974) ،ص 12 وما بعدها.

في إيجاد الطرق لتوصيل العلوم العصرية ،لينتشلوا أمّتهم من الهاوية ويحفظوا لها كيانها ويعيدوا لها مجدها "[161]

وفي خطوة جريئة تنم عن إدراك كبير لأهمية إدخال العلوم الحديثة في المناهج الدراسية، أقدم الشيخ أبو اليقظان الذي سبق له وأن عايش عن قرب ما كان يروج في تونس من أفكار إصلاحية و أشرف على أول بعثة طلابية جزائرية إلى تونس سنة 1914 م على تأسيس أوّل مدرسة نظامية بالقرارة سنة 1919 م ،وجلب لها الكتب المدرسية الحديثة ووضع لتلامذتها برنامجا دراسيا متطورا اشتمل على كثير من المواد التي كانت تعد في تلك الفترة غريبة أو مستهجنة لعدم إدراك الناس لأهميتها وقيمتها كالرياضيات والجغرافيا و غيرهما [162].

وعلى هذا النحو كذلك أبدى الشيخ إبراهيم أطفيش رغبة جامحة نابعة من قناعة راسخة بأن العلم الصحيح والدين الصحيح لا يتنافران بل كلاهما ضروري للآخر لسعادة الإنسان :"لا يعقل أن يبقى هذا الدين العظيم الذي أسعد البشر بكمالاته صورة في نفوس أهله أو يزعم بعض من ينتمي إليه أن العلم الحيوي يخالفه، فيفضي به الأمر إلى الاختلاف والاعتراض بالسوء والطعن على كل ما يبدو من العلوم النافعة ،وأنّ الإسلام لا يؤيد بالسيئات وإنما بالحسنات ومحاسن الأعمال وليس بالالتفات إلى أقوال الذين أفناهم الجمود ولم يرق لهم أن ينهض المسلمون إلى إثارة الأذهان واستعمال المذاهب العقلية واستعمال العلوم حتى يكون ديننا في عزّ ومنعة بقوة أهله [163]

[161]- الشيخ الرزقي الشرقاوي ،أسباب الرقي ، جريدة الصديق عدد 39 (1921).

[162]- محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص 47 2.

[163]- محمد ناصر، الشيخ أطفيش قفي: جهاده الإسلامي، مكتبة التراث، القرارة، الجزائر،1991، ص 91.

إلا أن الذي تميّز به المصلحون الجزائريون عن إخوانهم في العالم العربي الإسلامي ،وإن كانوا متحدين معهم في الغايات والأهداف المستوحاة من إخوانهم في العالم العربي الإسلامي من الإصلاح والتجديد هو اختلافهم معهم في المنهج ، ففي حين نلاحظ أن رفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبده وأحمد خان وخير الدين التونسي و علي مبارك قد ركزوا عملهم الإصلاحي بدعوة المسلمين إلى اقتباس العلوم العصرية من الغرب والاستفادة في تطبيقاتها، نرى المصلحين الجزائريين قد ركزوا عملهم الإصلاحي مع إيمانهم بهذه الأفكار على إعطاء الأولوية لنشر اللغة العربية والعلوم الإسلامية والدفاع عن الشخصية الوطنية الجزائرية العربية الإسلامية المهددة بالمسخ و الذوبان .

ولا غرابة في هذا مادامت الجزائر على خلاف إخوانها في العالم الإسلامي بما في ذلك تونس والمغرب ،كانت عرضة للإدماج زيادة على حرمان شبابها من تعلم لغتهم العربية وتعاليمه الإسلامية في المدارس الحكومية بدعوى أن الجزائر أصبحت جزء لا يتجزأ من فرنسا [164]

وفي هذا المعنى يقول الشيخ البشير الإبراهيمي "غاية التعليم هي تفقيه النشء الجديد في دينه ولغته وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه، تلك الأصول التي جهلها آباؤه فشقوا بجهلها وأصبحوا غرباء في العالم ، مقطوعين منه لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم ،في تحقيق هذه الغاية السلمية نجتهد ونكدح للوصول إليها ، وفي العمل لها نلقى الأذى ، وفي الأذى فيها نلقى راحة الضمير واطمئنان النفس وببلوغها - إن شاء الله - نكون قد أدينا الأمانة وقضينا المناسك وكفّرنا عن جريمة التقصير وفزنا بالعاقبة فحمدنا السري "[165].

[164]- عبد العزيز الساحلي، قضية التربية والتعليم من خلال فكر علماء الإصلاح، مرجع سابق، ص 137 / 138.

[165]- المرجع نفسه، ص 139.

أما أبو اليقظان فيرى في التعليم السبيل للخروج من الانحطاط فيقول "أيها المسلمون أيحلو لكم الأكل و الشراب و حالتكم هذه كما ترى، فالتعليم من بينكم مفقود، و ظل سحاب الجهل على ذنوبكم ممدود، أترضون بحياة الذل و المهانة، و لم تنهضوا من رقدتكم ؟؟"[166].

وتأسيسا على ما تقدم يظهر لنا جليا بعد النظر في الخطاب التربوي الجزائري الحديث حيث كان خطابا واعيا من حيث انسجامه مع السياق التاريخي ،فهو يتعامل بعقلانية مع مظاهر الانحطاط التربوي بالتصدي لمعالجتها وتصويبها بما يتفق وروح العصر لا بالقفز عليها ،والبحث على بدائل أخرى للّحاق بالغرب وتجنب الوقوع في أخطاء رواد النهضة الذين تبنوا مسايرة التيار الغازي والانخراط فيه ولم يريدوا الانغلاق على النفس وإعادة التقويم والتفسير، فكان أن ارتكزت النهضة العربية الحديثة على الحاضر والمستقبل وإعادة تفسير التاريخ وقراءته على ضوء الإشكاليات المستجدة [167].

وهكذا نجد أنه في الوقت الذي عملت فيه جمعية العلماء المسلمين على توحيد لغة التعليم والمناهج ورفض الازدواجية التي تفضي لا محالة إلى تشكيل نخبتين متصارعتين في المجتمع بنظريتين مختلفتين في توجهاتهما الحضارية وأن الاستعمار قد أوجد النقيض بتركه نخبة متغربة لا ترى الماضي والحاضر والمستقبل إلا بعين الغرب.

نجد تجربة محمد باشا المبكرة و المنطلقة تقريبا إن لم نقل قبل النهضة اليابانية تتعثر في الأخير لأنها حملت بذور فشلها في أحشائها ، فإذا كانت المقدمات خاطئة فبالضرورة النتائج تكون خاطئة ، فاليابان التي آمنت بقيمها الحضارية وحدت تعليمها في اللغة والمحتوى لكن اختار محمد على أن يترك القديم على قدمه وأن يعتني بالتعليم الحديث ، وهناك بذرت بذور التعددية في التعليم العربي الحديث " وبدأت أقطار الوطن العربي تأخذ عن مصر هذا النوع

[166]- دون إمضاء، الوطنية الحقة، جريدة وادي ميزاب، عدد 05 / 10/ 1927.

[167]- محمد وقيدي و أحميده النيفر ، لماذا أخفقت النهضة العربية ؟ ،دار الفكر المعاصر ،بيروت، ط 1، 1422/ 2002 ، ص 32.

من التعليم كما هو تقريبا ، تعليم ثنائي غير ممتزج ، و تعليم مفرغ من محتواه ، وتعليم يرتبط في توجهاته وبنيته بالواقع الذي نشأ فيه وأقيم أصلا لخدمته [168].

كما أن توحيد لغة التعليم في كل المواد بالنسبة لجمعية العلماء في مدارسها الحرة تعكس النظرة الثاقبة لمسائل التربية والتعليم التي كلها كانت قائمة على وحدة اللغة ووحدة البرامج ووحدة الهدف الأمر الذي يفضي إلى وحدة الشعور والتوجه وهذا بالضبط الذي تنشده المدرسة الحديثة في كياناتها القومية الوطنية ،وينسجم طرح جمعية العلماء وتوجهها التربوي العلمي مع هذا المبدأ الذي يبدو أن غالبية البلدان العربية اليوم لم تأخذ به فراحت باسم الحداثة وعصرنة المناهج تعمل بمبدأ الازدواجية في تعليمها ، الأمر الذي أفضى إلى الفشل الذريع ، وجعل المختصين ينبهون إلى ضرورة تصحيح هذا الخطأ، خطأ الازدواجية والعودة إلى اللغة العربية في إعطاء الدروس والمعارف في كل الأطوار التعليمية يقول الأستاذ الدكتور عصام نور الدين بنوع من الحسرة والمرارة " إني أرى أننا نسير نحو الهاوية إذا لم نرسم سياسة تعليمية واضحة لا لبس فيها ولا غموض . تنص على تعليم العلوم كلها باللغة العربية دون سواها وفي كل المراحل وفي كل التخصصات "[169].

ب - الدعوة إلى تعلم العلوم العصرية:

عرفت الجزائر عبر تاريخها الطويل عناية فائقة بالعلوم والمعارف التي تسهم في رقي المجتمع وتطوره ولم يكن ساعتها ثمة فرق بين علوم توصل إلى سعادة الإنسان في دنياه وأخراه و علوم تحقق سعادته في الحياة الدنيا ، فقد عرفت الجزائر نبوغ عدد كبير من العلماء كان لإسهاماتهم أكبر الأثر في الحضارة العربية الاسلامية و الانسانية، فاقترن الإصلاح الديني بالإصلاح الاجتماعي في وحدة لا انفصام فيها وتناسق لا يشوبه صدع.

[168]- الخميسي، التربية و تحديث الإنسان العربي، عالم الكتب، القاهرة، 1988، ص 103.

[169]- عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 560 .

فمحاولة الأمير عبد القادر الجزائري[170] الفكرية تعد من أهم المحاولات الجزائرية في ميدان النهضة ،و هذا ما حمل جورجي زيدان على أن يعده في كتابه" بناة النهضة" من القادة و الساسة ،كيف لا وقد كان منكبا على المطالعات الجادة لأمهات الكتب و المصنفات في شتى الفنون و العلوم.

و قد دعا الأمير عبد القادر إلى رفض التقليد واستعمال النظر بقوله:" و المتبعون من الناس على قسمين: قسم عالم مسعد لنفسه و مسعد لغيره و هو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد، و دعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدوه، و قسم مهلك لغيره، و هو الذي قلد آباءه و أجداده فيما يعتقدون و يستحسنون و ترك النظر بعقله ، و دعا الناس لتقليده، و الأعمى لا يصلح أن يقود العميان [171].

ثم يرى بأن التقليد في الكتب أشد خطورة من التقليد في الاعتقادات. " فتقليد الكتب أولى و أحرى بالذم و أن بهيمة تقاد أفضل من مقلد منقاد، و أن أقوال العلماء والمتدينين متضادة متخالفة في الأكثر، واختيار واحد منهما و اتباعه بلا دليل باطل لأنه ترجيح بلا مرجح"[172].

[170]- ولد الأمير عبد القادر بن محي الدين بمعسكر 1222هـ/1807م، نشأ في بيت علم و دين و فروسية، قاوم الفرنسيين تسعة عشرة سنة، بعدها نفي من وطنه، قضى خمس سنوات فيها في إقامة جبرية بفرنسا، و بعدها انتقل إلى دمشق حيث انصب على التدريس و الإصلاح و التاليف،كان من الشخصيات المعدودة في زمانه، توفي رحمه الله سنة 1300هـ/1883م بدمشق للمزيد عنه أنظر يحي بوعزيز ،الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب تونس 1983،و تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تعريب د/ أبو القاسم سعد الله، تعريب.

[171]-الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل، تحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، ص34.

[172]- المرجع نفسه، ص35.

وقد عبر الامير بآرائه حول الاجتهاد وتحرر العقل من قيود التقليد على أنه رائدا للاجتهاد في زمانه، كما ساهم في ميدان التعلم و التعليم، و حماية التراث من العدوان أو الخروج عليه، و أنه قام لتجلية هذا التراث و تنور ما يراه واقيا من الانصياع و الضياع و دافعا لمعاودة التقدم والمؤاخاة بينه و بين ما يناسبه من مظاهر الحضارة في عصر النهضة الأوروبية دون انبهار.

أما الشيخ العقبي ذهب إلى التأكيد على أن الإسلام مع التمدن الذي يفيد الإنسان و يحقق له السعادة وليس مع مظاهر التمدن التي تضرب القيم والأخلاق:" ما وقف دين الإسلام في يوم من الأيام و لن يقف أبدا في طريق التمدن مبدأه العلم و منتهاه العمل الصالح وإسعاد بني آدم بما تصبو إليه قلوبهم وتتمناه نفوسهم في كل عصر وحين، نعم نرى في تمدننا اليوم رغم حسناته الكثيرة مساوئ لا يحسن السكوت عليها ولا يسوغ للمتشبع فيها بالعقلية الإسلامية قبولها والموافقة عليها بحال من الأحوال ،ذلك لما فيها من ضرر محقق و فساد للأخلاق تتبرأ منه و تتنزه عنه شرائع الأخلاق.[173]

أما الأستاذ مالك بن نبي فقد رأى بأن الوصول إلى تحقيق أي تقدم وازدهار لا يكون إلا من خلال إسلام فاعل تسري فيه الروح لا طقوس دينية لا تهز النفوس ولا تستعمل العقول ، ضاربا أمثلة عن تاريخ الإسلام الذهبي ليدلل على ما يقول :" إن روح الإسلام التي خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي ، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن ينكحه من يختار من أزواجه ، بعد أن يطلقها له، لكي يبني بذلك أسرة[174].

[173]- الشيخ الطبيب العقبي، الإسلام و التمدن العصري، جريدة السنّة، العدد 1، 1351 هـ.

[174]- فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط2، بيروت، 1985، ص 452 .

إن قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام ، ولكن أي إسلام؟

الإسلام المتحرك في عقولنا ، وسلوكنا ، و المنبعث في صورة إسلام اجتماعي وقوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة ، و في يدها ضمانا لذلك تجربة عمرها ألف عام ، وحضارة تتفق مع روح العصر الحاضر ، و باطل ما يقولون بل الحق الذي لا غبار عليه ولا مرية لدى المنصف فيه هو أن الإسلام دين كل تقدم ورقي يأمر بكل فضيلة و ينهى عن كل رذيلة أساسه المساواة بين بني البشر و هيكله المشاد على ذلك الأساس إنما هو الرحمة و العدل :" ليس الإسلام بتعاليم جافة و عقائد تفرض على الناس فرضا وتلزم العقول إليها إلزاما ، كما تزعم النفوس على العمل بها إرغاما، ولكنه عقيدة هي وليدة الإيمان والعلم، و عمل صالح لكل زمان، هو نتيجة ذلك العلم وذلك الإيمان و لولا ذلك لما لبث على ظهر الكرة الأرضية أربعة عشر قرنا و أتباعه بما فيهم من علماء و فلاسفة وحكماء يحصون بمآت الملايين [175].

يذهب الأستاذ الشيخ العقبي إلى أن الإسلام كعقيدة وشريعة ليس بمنقذ للمسلمين مما هم فيه من ضنك، بل هو الحل و الخلاص لكل الإنسانية و معاناتها في الجوانب المادية و الروحية: "و لا منقذ لهذه البشرية من كروبها التي تعانيها وكل آلامها وأتعابها إلا احتذاء تعاليمه و السير على نورها المستبين ،و أن كل ما تشاهده من آثار تمدن العصر النافعة لصلة قوية وعلاقة متينة يمت بها إلى تعاليم القرآن ودين الإسلام و كل ما تشتكي منه الإنسانية المعذبة و تتألم من هذا التمدن العصري وقد تتحمله مكرهة و تتجرعه و لا تكاد تسيغه لهو مما حذر الإسلام منه ونهى عنه "[176].

[175]- الشيخ الطبيب العقبي، الإسلام و التمدن العصري، جريدة السنّة، مرجع سابق.

[176]- الشيخ الطيب العقبي، المرجع السابق.

في حين يرى الشيخ ابن باديس أن قيام صرح أي نهضة أو تقدم من خلال ترسيخ تقاليد المنهج العلمي القائم على النزعة العقلانية، لا يكون إلا بالفكر وإمعان النظر في آيات القرآن الكريم وفي ملكوت الأرض كما أنّ الأمم في نظر الشيخ ابن باديس لا تنهض إلا بالتفكير في الطبيعة وفي آيات الله ،ولا تتقدم إلا ببناء أعمالها وأحكامها وأقوالها على الفكر، وذلك وحده هو سبيل الحضارة والعمران واستغلال الكون، ودعا إلى أن يكون إسلامنا ذاتيا أي إسلاميا حقيقيا أصله القرآن والسنة ولا يكون إلا عن طريق التعليم.

وقرر أنه لا حياة إلا بالعلم وذهب إلى أن القرآن نفسه معجزة علمية عقلية أي أنّ الإنسان العاقل إذا فكر فيه خضع لسلطانه لأنه برهاني لا يقوى على معارضته ولأن القرآن آية كبرى على مر العصور لانبنائه على الاحتجاج بالعقل والعلم وأوضح لنا أن في الإسلامي من هذا البرهان العقلي ما يكمل عقولنا ويهدي أرواحنا[177].

وقد أثبت الشيخ الأستاذ ابن باديس إمكانية الجمع بين العقل والنقل في الأدلة ، وبيّن حكمة الازدواج في الإيمان وبين التصديق والإذعان والنظر والاستدلال، فذهب إلى أن النقل من أصول الدين وكليات الشريعة بدلالة القرآن القطعية الصريحة ، فالمؤمن مكلف تكليف مسؤولية باستخدام عقله وحواسه في عقيدته وحياته الفكرية والعملية ،ولكي يرضي الله عبادة وطاعة يجب مع تصديقه وجزمه أن ينظر في آيات الله و يستعمل عقله للفهم كما تجب عليه جميع الواجبات في الإسلام.

وانطلاقا من هذه القناعة كانت الجهود مضنية على تجذير الهوية الجزائرية في الأوساط الشعبية ،و تجلى ذلك في عملية الإحياء بكل ما يمس أطر الحياة الاجتماعية و الثقافية و الدينية التي تشكل الوجه الحضاري للجزائر ، و يبدو واضحا هذا الاهتمام بعملية الإحياء

[177]- برهان غليون ، اغتيال العقل ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر ، 1990 ، ص 30 .

للتراث العربي الإسلامي ، و نفض الغبار على جهود علمية و معرفية كادت معالمها أن تنطمس و تندرس زيادة على خنق الاستعمار لها و محاولة تغييبها على المشهد الثقافي عمدا و قصدا حتى يمكن تمهيد الطريق لعملية الفرنسة و التغريب للهوية الجزائرية و هذا كان مطمع دهانقة الاستعمار من البداية .

فقد وصفت جريدة القل سنة 1865 م أن النظام المنسجم الأمثل الذي ينبغي أن يتحقق في البلاد ، فكتبت تقول : " على كل واحد من سكان البلاد : الجندي بسيفه ، و المعمر بمحراثه ، و الراهب بصلاته ، و العربي بخضوعه ، على كل هؤلاء أن يجعلوا من هذه القوى كتلة واحدة لكي تحقق للجزائر المستقبل الزاهر الذي كتبه الله لها "[178].

و لأن البون الحضاري كان شاسعا بين الشرق و الغرب ، لم يكن خافيا على أحد عالما كان أو متعلما ، فقد رأى المثقفون الجزائريون ضرورة العمل على تدارك الانحطاط الذي صار باديا على قسمات كل أقطار العالم الإسلامي ،وذلك بالدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة و الرقي و الاقتباس من حضارة الغرب من دون تفريط في موروثنا الحضاري لأن في الاعتماد على ما عندنا من تراث و قيم حضارية مغربلة كفيل بأن يفسح المجال واسعا لكل الإضافات الحضارية المفيدة.

و هذا الطرح نجده متجاوبا مع الدراسات الحديثة التي تعير اعتبارا كبيرا للتراث كعامل رئيسي في عملية التنمية الاجتماعية يقول الشريف الدشوني : " إن التراث الذي خلفه الأجداد و الآباء بكل زخم حياتهم يسعى اليوم حيا بين ظهرانينا ،إن التراث لا يعني فقط الانكباب على النصوص و إحياء مواتها .

[178]- مصطفى الأشرف : الجزائر الأمّة و المجتمع ، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1980 ، ص 315.

فمن أجل الاقتراب من التراث و فهمه فهما عميقا و مفيدا من الناحية العلمية (التقدم و التنمية) لا بد من الأخذ بالمنهج العلمي و التحليل الموضوعي للخبرة التاريخية في الاقتصاد و الاجتماع و أيضا بشكل تركيزي للخبرة الراهنة في تجارب الجماهير في كيفية صنع معاشها الواقعي الراهن بكل تعقيداته و تصوراته وقيمه الاجتماعية بهدف اكتشاف مواقع (براعم) النمو فيه و من ثمة القدرة على دفع المجتمع إلى الأمام عن طريق هؤلاء (الأهالي) أنفسهم [179].

و عندما نحاول أن ننهض لا ينبغي علينا أن نعرض عن تراثنا و ندير ظهرنا و نرتمي بكليتنا في الحضارة المعاصرة و كأننا كائنات لا تراث لها ، كلا إن تأسيس " الحداثة " فينا و عندنا يتطلب إعادة الانتظام في تراثنا إعادة بناء علاقاتنا به بصورة حداثية ، إن الحداثة تبدأ باحتواء التراث و امتلاكه لأن ذلك هو في الحقيقة وحده السبيل إلى تدشين سلسلة من " القطائع " معه إلى تحقيق تجاوز عميق له إلى تراث جديد فعلا ، متصل بتراث الماضي على صعيد الهوية و الخصوصية منفصل عنه على صعيد الشمولية و العالمية[180].

بل وذهب زكي نجيب محفوظ إلى أن أم المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة هي محاولة الكشف عن صيغة لحياتنا الفكرية والعملية تجمع لنا في طيها طرفين إذ تحافظ على خصائصنا العربية الأصيلة وفي الوقت نفسه تفتح لنا الأبواب على مصراعيها لنستقبل في رحابة صدر أسس الحضارة العصرية كما يحياها اليوم روادها [181].

---

[179]- شريف الدشوني ، بعض قضايا التنمية و التراث في الوطن العربي ، مجلة المستقبل العربي ، عدد 198 (8- 1995)، ص 38.

[180]- محمد عابد الجابري : حوار المشرق و المغرب ، دار طوبقال، الدار البيضاء ،ط1 ،1990 ،ص 70.

[181]- عبد الباسط سيدا، الوضعية المنطقية و التراث العربي: نموذج فكر زكي نجيب محمود الفلسفي، تقديم طيب تيزيني، دار الفارابي ، بيروت، ط1، 1990، ص 210.

و انطلاقا من هذه الخلفية القائمة على منطلق تجاوز مرحلة التخلف بالولوج في عالم الإبداع نلقى الأستاذ مالك بن نبي يسلط الضوء على مسألة أساسية لا يمكن تجاوز التخلف بتجاوزها ، و القفز عليها ألا وهي طاقة الدفع الحضاري بالنسبة للعالم الإسلامي و التي تعد الأساس في عملية بناء الحضارة من خلال قراءة استقرائية له للتاريخ الإسلامي .

فانتهى إلى نتيجة هي أن العالم الإسلامي دخل مرحلة الانحطاط منذ نهاية دولة الموحدين التي حاولت أن تتدارك عملية السقوط بإعطاء دفع جديد لحركية الأمّة التاريخية ، إلا أنها لم تقدر على ذلك و خلفها من لم يكن في حالة صحية تمكنه من القيادة السليمة للأمة فانتهى الأمر إلى حالة الفوضى و طغيان التناقضات :"يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان ما بعد الموحدين ، فإذا نظرنا إلى هذا الوضع نظرة اجتماعية ، وجدنا أن جميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة العمران ، لم تكن إلا تعبيرا عن حالة مرحلية يعانيها الإنسان الجديد، إنسان ما بعد الموحدين ، الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية و الذي كان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متطرفة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين ، فالنقائص التي تعانيها النهضة الآن يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعة في التاريخ[182].

الأمر الذي أحال العالم الإسلامي حضاريا على التقاعد بل ورهن مصيره بيد أعدائه ،بعد أن فقد صمام الأمان تسرب الآخر إلى كيانه و تحكم في كل حركاته و سكناته ،ومن ثمة كان طبيعيا وكتحصيل حاصل أن يفقد ليس فقط الريادة في العالم بل و حتى القوامة على نفسه .

[182]- مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، ط5، 1986، ص 37.

فمهد بالتالي هذا إلى تداعي أعدائه من الخارج فتم الإجهاز عليه بفقدانه لكل سلاح روحي و مادي ، رجل ما بعد الموحدين الذي لم يؤخذ دوره التاريخي الجمع قوى كثيرة لكي تحاول النفاذ إلى عمق الواقع الحضاري العربي و الإسلامي انطلاقا من المغرب العربي لتبدأ عملية الغزو بكل معانيه و تناوبت يد التجهيل و التفقير على العرب و المسلمين باسم الخلافة مع العثمانيين و باستعمار سافر مع الأوروبيين [183].

و يرى الأستاذ مالك بن نبي أن مكمن الداء في العالم الإسلامي يظهر في فتور الإيمان بالعقيدة الأمر الذي جعل قطار العالم الإسلامي معطلا عن سيره بعد أن فقد الطاقة الإيمانية التي كانت محركة له :"حتى إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنزف آخر قطرة من الوقود ، وما كان لأي معوض زمني أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية ألا و هو " الإيمان " و لذا لم تستطع (النهضة التيمورية) التي ازدهرت في القرن الرابع عشر حول معاني سمرقند أو الإمبراطورية العثمانية، كلاهما أن تمنح العالم الإسلامي حركة لم يعد هو في ذاته يملك مصدرها "[184].

و كنتيجة حتمية لذلك دخل المجتمع الإسلامي في تخلفه بعد أن فقد القدرة على التفاعل مع الإسلام من الزاوية الروحية الأمر الذي أضعف العزم على المجابهة و التطوير ، فخارت القوى و تبددت الطاقات، لأن كل قوى العالم عاجزة عن النهوض إن لم يكن منبعثا من الذات ، و لأنه ضعف الإيمان في دخائل الذات، و وهنت الروح القرآنية

[183]- أسعد السحمراني ، مالك بن نبي : مفكرا إصلاحيا ، دار النظائر ،بيروت ، ص 79.

[184]- مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ،مرجع سابق، ص 31.

الدافعة إلى طلب الأفضل في الحياة الدنيا و الآخرة حصل الركود فكان التخلف في المجتمع الإسلامي[185].

و حسب الأستاذ مالك بن نبي فإن المجتمع الإسلامي قد مر بثلاث أطوار حضارية في مساره التاريخي بدأت بعصر الفارابي الذي كان يخلق أفكارا ، و على عهد ابن رشد يبلغها إلى أوروبا ، و بعد ابن خلدون لم يعد قادرا على الخلق ، و لا على التبليغ[186].

و الذي نفهمه من هذا أن الأستاذ بن نبي اعتبر طاقة الدفع الحضاري هي أولوية الأوليات في تجاوز حالة الانحطاط و التخلف ،

و أن تجاوزها يرهن مستقبل الأمّة و يجعلها تراوح مكانها حضاريا ،ذلك أن الولوج إلى الحداثة من غير ارتكاز على الأصالة التي هي جوهر الهوية ، سوف يجعل التعامل مع الآخر و هو الغرب لا يعدو أن يكون تعامل التاجر مع الزبون لا تعامل أستاذ مع تلميذ.

و في ذلك يقول بن نبي : " الحركة الحديثة ليس لها في الواقع نظرية محددة ، لا في أهدافها ولا في وسائلها ، و الأمر بعد هذا لا يعدو أن يكون غراما بالمستحدثات ، فسبيلها الوحيد هو أن تجعل من المسلم (زبونا) مقلدا - دون أصالة - الحضارة غربية تفتح أبواب متاجرها أكثر من أن تفتح أبواب مدارسها ، مخافة أن يتعلم التلاميذ وسائل استخدام مواهبهم في تحقيق مآربهم "[187].

و هذه القابلية في العالم الإسلامي لولوج الحداثة من خلال عملية الاستهلاك و التكديس بطريقة بدائية ليست بالطريق الصحيح لبناء نهضة :" إذ ليست الحضارة تكديسا للمنتجات بل هي بناء و هندسة ، فلو أننا قصرنا نظرنا على عناصر الحضارة و منتجاتها فلن نرى حتما

---

[185]- أسعد السحمراني ، مالك بن نبي ، دار المعارف، بيروت، ص 80 .

[186]- المرجع نفسه، ص 80 .

[187]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 71.

بناء المجتمع الغربي ، لا ندرك ما ترمز إليه تلك الفضائل الدائمة المتجسدة في العامل ، و الفنان ،والعالم و الفلاح البسيط على حد سواء بل ستخدع بما تدل عليه أشكالها المؤقتة كالطائرة و المصرف، و ليس في بناء العالم الإسلامي شيء يمكن إدراكه بوضوح ، فالناس هنا و هنالك يأخذون بناحية ما يبدو لهم أكثر سهولة و يسرا"[188].

إن المسلم أصبح في اتصاله بأروبا لا يكترث بمعرفة كيف تم إبداع الأشياء؟ بل يقتنع بمعرفة طرق الحصول عليها فأدى هذا الوضع إلى تطور في الكم، زاد في كميات الحاجات دون أن يعمل على زيادة في وسائل إشباعها، فانتشر الغرام بكل ما هو مستحدث في جميع طبقات المجتمع فالطالب الذي يعيش في باريس لا يرى المرأة التي تجمع قضبان العشب لأرانبها، وإنما يرى التي تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن في المقاهي والندوات ،وهو لا يرى الصائغ والفنان منكبين على عملهما ليحققا فكرة على صفحة المادة لأنه وقد خضع لتأثير معنى المنفعة، لم يعد يلاحظ الطاقات الخفية الطاقات التي تخلق القيم الأخلاقية والاجتماعية ، و التي تجعل الإنسان المتحضر في وضع يمتاز فيه عن الإنسان البدائي:" فإن الثقافة تبدأ متى تجاوز الجهد العقلي الذي يبذله الإنسان حدود الحاجة الفردية، ولقد اكتفى الطالب المسلم بقراءة الحضارة ، فتعلمها دون أن يتذوقها، وقد أدى هذا إلى انعكاسات تمنع كل تفاعل بيننا وبين أوروبا يلحقنا في ركن الركب[189].

و إذا كان مالك بن نبي يري من المحدثين و دعاة الإصلاح قصورا في إدراك حقيقة هامة، فالإصلاحيون لم يتجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإسلامي ، كما أن المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي، و مع ذلك فإن الفصل بين الحركتين ضروري من الناحية النفسية ، فلقد كان السلفي وحده هو الذي يمثل فكرة النهضة ،و هو و إن لم يحقق

---

[188]-المرجع نفسه، ص 69.

[189]- عمر كامل مسقاوي، حول فكر مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط (1) ،1405هـ/ 1985 م ، ص 61 وما بعدها -

شروطها العلمية بصورة منهجية ، فإنه على الأقل لم يضيع هدفها الجوهري ، لقد كان يعي تماما أوضاع بيئته ، حتى أنه ألح في المطالبة بأن يؤدي كل واجبه تاركا للمحدثين الضرب على نغمة (الحقوق)[190].

إن فكرة النهضة عند المحدثين أمر ثانوي - حسب مالك بن نبي - لأنهم لم يخالطوا حياة بلدانهم إلا في الميدان السياسي أي أن المسألة في نظرهم لم تكن مسألة تجديد العالم الإسلامي و بعثه و إنما كانت انتشاله من فوضاه السياسية الراهنة ،و حتى في هذه النقطة لم يكونوا مصيبين في نظر بن نبي لأنهم لم يعالجوا في الواقع مشكلة الإنسان المسلم ، بل مشكلة النظم الأوروبية[191].

و كأن بمالك بن نبي على وعي تام وإدراك محقق بان المغلوب مولع بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون ، فقد أدرك أن نية العالم الإسلامي إلى ضرورة التفكير في إعادة بناء حضارة تقوم على الموازنة بين الروح و المادة لا على أساس التهالك في التقليد الأعمى للغرب في بناء الحضارة بالارتداد عن المثل الأخلاقية و حصر العالم في حدودها القومية الخاصة على أساس لغة المادة الخالصة: " إن الحضارة العربية الإسلامية الجديدة ينبغي أن تقوم على أساس من التعادل بين الكم والكيف ، بين المادة والروح ، بين الغاية والسبب ، و بكلمة بين العلم و الضمير ، بتعبير آخر . إن نهضة العالم الإسلامي ليست في الفصل بين القيم و إنما في الجمع بين العلم و الضمير ، بين الخلق و الفن ، بين الطبيعة و ما بعد الطبيعة . فبهذا يتسنى له أن يشيد وجوده لقانون أسبابه و وسائله و طبقا لمقتضيات غاياته "[192].

---

[190]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ، مرجع سابق، ص 71.

[191]- يمينة شيكو ، مشكلة التقدم في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير مخطوطة جامعية ، الجزائر ، ص 85 .

[192]- فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، مرجع سابق، ص 420 .

ثم يضيف مبرزا دور المسلمين في المحافظة على القيم الحقيقية للحضارة فيقول : " و لا شك أن رائد الحضارة الجديدة هذه ينبغي أن يظل هو الحافظ على مضي " الحقيقة الخلقية " ،هذه القيمة التي فقدها الفكر الغربي الحديث الشائخ و التي تعني في نهاية التحليل التركيب بين الروح و المادة ،و ليس كالمسلمين من أحد بقادر على توجيه الحضارة وجهتها الصحيحة، بفضل القيم الخلقية والإنسانية التي مازالوا يملكونها على الرغم من تخلفهم و من فقدهم لقدر عظيم من التعادل بين العلم و الضمير"[193].

ويرى مالك أن الإيمان بالحضارة لا ينبغي أن يكون حبيس الأفكار النظرية المجردة ومن ثمة كان اهتمامه بالإنسان كحركة في الواقع وحركة في النهضة وحركة باتجاه الحضارة لأن معرفة إنسان الحضارة كما يقول: أشق كثيرا من صنع محراث أو ترويض قرد، فالحركة أو الركود هو ما كان يقوده للبحث في سلوكية وظواهر الإنسان المسلم الذي يهمه فيه إعداده للانتقال من مرحلة التدهور الى مرحلة الحضارة ولهذا وضع معظم كتاباته تحت عنوان مشكلات الحضارة[194].

بناء على ما تقدم نخلص إلى أن بعد الهوية في الخطاب النهضوي جاء كاستجابة لمنطق الصراع بين الأنا و الأخر ، بحيث تعرضت هوية الأمّة لحرب إستدمارية استهدفت تمسيخها بالشكل الذي يقضي أي ارتباط لها بالماضي الذي شكلها ، و من ثمة يسهل توجيه المجتمع الجزائري الوجهة التي يريدها الاستعمار و هي إيجاد هوية جديدة له.

لا ننظر بعين العداء لذلك الآخر الذي صار مهيمنا على الواقع المعيش في البلاد ،وعليه فإن المثقفين النهضويين قد وقفوا في وجه كل الغارات التي تستهدف الاعتداء على الهوية

---

[193]- فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، مرجع سابق ، ص 420.

[194]– على القريشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، مجلة الأمّة، عدد 69، رمضان 1406 هـ/ مايو 1986، الدوحة، ص 29.

الوطنية مثل سياسة الإدماج و التجنيس و محاربة اللغة العربية و الدين الإسلامي ، كما تصدوا لأولئك المتجنسين من الجزائريين الذين انسلخوا عن جلدتهم ، و خرجوا من ملتهم ، لكي ينالوا حقوقا وهمية.

كما عزز البعد العربي الإسلامي بعد الهوية الجزائرية.

وجد الخطاب النهضوي في الدفاع عن الهوية الوطنية بعدا في الحضور السياسي و دافعا قويا لاستنهاض الهمم و تعبئتها ، لمواجهة كل المخاطر التي تريد النيل من مقومات الأمة الجزائرية و تمسخها.

لم تكن المؤامرة الاستعمارية على الهوية الجزائرية سوى رغبة جامحة لتحطيم البنية الاجتماعية للجزائر و من ثمة لا تقوم لها قائمة.

المحاضرة الرابعة عشرة: أساليب فرنسا في القضاء على الذاكرة التاريخية للجزائريين واهتمام العلماء بالتاريخ الوطني.

نظر المثقفون الجزائريون إلى التاريخ الوطني والقومي للجزائر على أنّه يشكل مقوّما أساسيا من مقومات الهوية الوطنية، ينبغي الدفاع عنه، فأمّة بلا تاريخ هي أمّة بلا ذاكرة، و أمّة بلا ذاكرة فهي لا محالة أمّة غير واعية لواقعها ومستقبلها عرضة للاضمحلال والتلاشي.

وحتى يمكن للاستعمار أن يثبت وجوده ، راح قادته و مفكروه يعملون على محاولة التشكيك في امتزاج العنصرين العربي والبربري ساعين إلى إبراز وجوه الخلاف في التقاليد والعادات والطباع والأخلاق، والادعاء بأن البربر الذين فتحوا الأندلس وغزوا فرنسا وفتحوا ايطاليا إنما كانوا برابرة مسيحيين يخدرون من شعوب أوروبية أصلا والادعاء بأن البربر شعب مستقل عن العرب الغزاة[195].

بل إنّ هذا الاستعمار قد أقدم على تنفيذ خطة دنيئة تتمثل في تهديم المعالم والشواهد التاريخية الجزائرية والسعي إلى طمس كل ما له صلة بإسلام الجزائر وعروبتها عبر التاريخ، وتقوم هذه الخطة على :

1- تهديم المدن العربية الجزائرية بقصورها ومساجدها ومدارسها ومعاهدها وإحلال المدن المبنية على الشاكلة الأوروبية محلها.

2- استغلال المحتلين الفرنسيين الآثار المكتوبة و المتعلقة بتاريخ الجزائر.

[195]- أنور الجندي، الفكر والثقافة في شمال افريقيا، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، 1965 ، ص 98 .

3- دراسة الآثار المكتوبة والتركيز على الجوانب السلبية والسيئة منها ، تم ترجمتها ونشرها، و تلقح بلقاح الاستعمار ، وتضاف إليها بعض النصوص المشوهة مما كتبه غلاة المسيحيين في الجزائر في لا يمثل أي إشكالية ذلك أنه عبر التاريخ ساهم" الأمازيغ (البربر) إلى جانب العرب في بناء صرح الحضارة الإسلامية ، فاستحقوا بتوتها على قدر المساواة دون تفرقة أو تمييز، وواقع الجزائر أكبر دليل على ما يقدمه، كما أنه أكد: ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دمها، ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال [196].

ويدعم الشيخ ابن باديس نظرته هذه بالحديث النبوي الشريف " وليست العربية بأحدكم من أب و لا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي [197].

ويؤكد الشيخ ابن باديس على الامتزاج الحضاري بين العرب والبربر في بوتقة واحدة فيقول" وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محاربهم في مجالس الدرس لخدمة العلم، فأي قوة بعد هذا القول تستطيع أن تفرقهم؟" لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي ، كلا والله ، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة ترابطهم"[198].

" وقد جاء تأكيد الشخصية الجزائرية كرد فعل لبروز مسألة الظهير البربري[199] من قبل إدارة الحماية في 16 ماي 1930م و يقضي هذا القانون بمنح الجماعة المحلية صلاحيات

---

[196]- ساجد أحميد عبل ، الشيخ عبد الحميد بن باديس والوعي القومي العربي ، مجلة المستقبل العربي عدد 254، أفريل 2000، ص 61-62.

[197]- المرجع نفسه، ص 62.

[198]- ساجد أحميد عبل، مرجع سابق، ص 62.

[199]- هو إقرار العرق في المناطق البربرية، وقد صدر الظهير الأول سنة 1914 م بإيعاز عن المقيم العام ليوني تم صدر الظهير الثاني سنة 1922م، ويتضمن تأسيس محاكم عرقية تقضي حكم الشريعة الإسلامية ، تم صدر الظهير الثالث سنة 1930 وفيه اقصاء للشريعة الإسلامية و إقرار العرف

قضائية وإنشاء محاكم لا تسند في أحكامها إلى الشريعة الإسلامية ، ولكن إلى العادات والتقاليد البربرية كما يقضي بإنشاء محاكم استئناف صلاحياتها تشمل الأنشطة المدنية والتجارية والأحوال الشخصية والإرث أما الجنح فيتولاها التشريع الفرنسي، مما ترتب على ذلك أن شن رجال الإصلاح الديني حملة شعواء ضده[200].

وقصد تعزيز التاريخ الوطني الذي يشكل أحد مقومات الشخصية الجزائرية في أوساط المجتمع راح بعض المؤرخين الجزائريين يبذلون قصارى جهدهم من أجل إحياء مآثر التاريخ الجزائري عبر العصور، بعد أن حاولت الأقلام الاستعمارية تحريفه وتشويهه وفق ما يستجيب لأغراضها ومخططاتها، وهذا ما يظهر في كتابات المشائخ الثلاثة: مبارك الميلي، وأحمد توفيق المدني، وعبد الرحمن الجيلالي، الذين كان قصدهم الظاهر والباطن من تأليفهم هو تعميق البعد الوطني وإبراز الجزائر كأمّة مثل كل الأمم، في كل العصور التاريخية.

فالأستاذ العلامة مبارك الميلي كشف من خلال مؤلفه" تاريخ الجزائر في القديم والحديث في ذلك الوقت العصيب " إن الجزائر لم تمت وأن أهلها لم يفرطوا في ذات لغتهم، ولا في ذات تاريخهم، بل أن تشبتهم بأصالتهم الجزائرية ازداد، وحرصهم على دينهم تضاعف، ورغبتهم في معرفة كل ما يمس حضارتهم أو ما يمت إليها قد اتسعت على نحو عجيب[201].

وتوسيع مجال القانون الفرنسي، قوبل بالرفض من كل فئات الشعب المغربي. للمزيد انظر عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ص 69 وما بعدها.

[200]– ساجد أحميد عبل، مرجع سابق، ص 62.

[201]– عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ، ش و ن ت، الجزائر، 1983 .

مقدما الكتاب هدية لشعبه الناهض إنّنا نكرس كتابنا ونهديه الى الشعب الجزائري و إلى شبابه المفكر و إلى رجاله الذين يناضلون بكلّ إخلاص[202].

ومن هنا نجد كتاب الميلي يهدف إلى تلبية حاجة أكثر منه رغبة في التأليف من أجل التأليف " فقد نظر ، فيما يبدو في أمر هذه الأمّة الجزائرية فوجد فيها نزوعا إلى الحرية، وأنس منها تشبثا بدينها ولغتها وحضارتها وتقاليدها فعلم أنها مفتقرة إلى كتاب في تاريخها يوضح لها هذه المعالم ويبين لها تلك السبل خير تبيان لأن المفكر والمؤرخ لا يأمن أن ينقلب أمر الأمّة إلى غير ما كانت عليه، ويتغير على نحو سريع، بفعل التأثيرات الدعائية الاستعمارية أو بفعل التطور الحضاري، فإذا ما كان الجد يراه مثلا أعلى ويراه الأب مبدأ مقدسا، يراه الابن شيئا خسيسا من خرافات المخرفين، وشعبذة المشعبذين لا معنى له على الإطلاق[203].

بل إنّ هذا التأليف التاريخي عن الجزائر عبر عصورها وقيمته النفسية والروحية والأخلاقية يكاد يساوي ثورة عسكرية قائمة بنفسها ضد الاستعمار، و على أن الثورة العسكرية يمكن أن تقمع بشوكة السلاح، أما الأفكار والمبادئ، فإنها لا تموت بموت أصحابها، ولكنها تظل بعدهم حية نابضة بالحياة، تستثير النفوس فتثور، وتدفعها فتندفع، وتقودها فتنقاد[204].

ولقيمة هذا التأليف التاريخي فقد نوهت به الصحافة الوطنية ، كما أولته الصحافة التونسية أيضا عناية خاصة ورأت فيه بادرة تحول في خطة رجال الجمعية ، واعتبرته من الأعمال الجليلة التي جاءت في إبانها، لا تسد النقص الذي نشكو منه المكتبة الجزائرية فحسب،

---

[202]- Saad Eddine Bencheneb, quelques historiens arabes modernes de l'Algérie, revue africaine n°91(1956) p492.

[203]- عبد المالك مرتاض، مرجع سابق، ص 188 .

[204]- المرجع نفسه ، ص 189 .

وإنما اعتبرته ضربا من ضروب المقاومة، وتصويبا للأخطاء والمغالطات التي تقصد إليها الأجانب من المستعمرين في خطة مبيّتة لتشويه تاريخ الجزائر ، وعدت الصحافة التونسية ظهور هذا الكتاب بداية نهضة حقيقية قائلة بهذا الصدد:" نهضت الجزائر نهضة مباركة منذ سنوات قليلة ، وشعرت بأن الخطوة الأولى في سبيل النهوض لابد أن تعتمد على الأدب الذي هو قوام الروح وغذاء الفكر ، والدافع الأقوى إلى المشي نحو الأمام[205].

ثم يضيف " قبل هذا الوقت . كانت الجزائر لا تملك كتابا يحوي صحفا من تاريخها، ولا يعلم أبناؤها العالم منهم وغير العالم بما كان ماضيا زاهرا أو غير زاهر، حتى صدر كتاب (موجز التاريخ العام للجزائر)و(قرطاجة في أربعة عصور[206]أخذت الأمة الجزائرية تشعر بذاتيتها، وتعلم أن لها مركزا بين الأمم كريما مشرفا، فبعث في همة أبنائها وحملهم على التأليف في تاريخها[207].

و قد كان هذا الكتاب يهدف إلى تنوير الجزائريين الذين تقبلوه وأثنوا على صاحبه وبينوا قيمته.

أما الإدارة الاستعمارية فقد فزعت و توجست من هذا الكتاب خيفة حيث اهتمت التقارير الاستعمارية بمضمون ومحتوى هذا الكتاب، حيث اعتبرت الكتاب بمثابة المصنف المعتمد لدى طلاب المدارس الحرة، ونقلت من مقدمة الكتاب أنه في الوقت الذي حضرت فيه قرطاجة [208] البربر عمدت روما إلى إعادتهم إلى التخلف[209].

---

[205]- محمد صالح الجابري، المؤرخ الجزائري مبارك الميلي في الصحافة التونسية ، مجلة الثقافة الجزائرية عدد 102 (1989) ص 21 .

[206]- طبع بتونس سنة 1927 وكان الهدف المدني من تأليفه هو الإشادة برسوخ قدم هذه البلاد في مقاومة الاستعمار منذ فجر التاريخ وتقويض أسطورة التأثير المدني الروماني التي يتغنى بها المستعمرون الفرنسيون وبيان الأصول الواحدة للعنصرين الرئيسيين البربر و العرب اللذان حققا سعادة و وحدة البلاد منذ التحامهما إلى الأبد.

[207]- محمد الصالح الجابري ، مرجع سابق ، ص 22.

[208]-- ألف المدني مسرحية حنبعل التي عرضت في الجزائر مع نهاية الأربعينات و يدور موضوعها حول البطل حنبعل الذي حارب الرومان و انتصر عليهم في معارك كثيرة قبل أن ينهزم في الاخير والمسرحية عبارة عن تمجيدات و تقديسات للوطنية والكفاح، وكان المدني يكتب عن مجاهد جزائري لا

كما راح التقرير يستحضر شواهد عديدة من الكتاب ليدلل على مدى خطورته كالحديث عن البطل يوغرطة و الملك يوبا، وتاريخ الرومان في بلاد المغرب، وصمود المقاومة في مواجهته، وعدم الإذعان له[210].

كما يعد كتاب الجزائر " للأستاذ أحمد توفيق المدني الذي صدر سنة 1931م، إسهام كبير في عملية الإحياء التاريخي للجزائر. و جاء هذا الكتاب التاريخي القيم في وقت كانت فرنسا قد أحيت الذكرى المئوية للاحتلال زيادة على إمعانها في تزييف وتحريف تاريخ الجزائر يقول الأستاذ المدني"... لقد كان كتاب الجزائر فتحا مبينا، نزع عن الشعب كل الشعب، غشاوة الجهل المطبق الذي فرضه الاستعمار، فيما يتعلق بالبلاد الجزائرية ، وكشف الزيف الاستعماري الخبيث الذي وضع الأباطيل والخرافات موضوع الحقائق وقد أطلقت لقلمي العنان فسجلت تاريخ البلاد الجزائرية، من أقدم عصورها إلى سنة 1830م كما يجب أن يسجل مطهرا من الكذب ومن الزيف الاستعماري[211].

ثم راح يكشف عما وقع للجزائر في ظل السياسة الاستعمارية فيقول:" ثم كان قسم الحالة الحاضرة بالبلاد الجزائرية سنة 1930م فأطنبت في ذكر النظام الإداري والسياسي والمالي والاقتصادي والقضائي ،وبينت خلو كامل ذلك النظام من العنصر الجزائري، وأخيرا كان فصل الختام، حالة المسلمين العامة، فذكرت فيه بإطناب وضعيتهم القانونية الحائرة المذبذبة، وقضية التجنس الفرنسي والحالة الصحية والعمال والمرأة والموسيقى ، والتمثيل والصحافة وحالة الدين الإسلامي وختمت بذكر الحالة الاقتصادية والعامة.

عن مكافح افريقي قديم و قد ختم مسرحيته بالتسبيحة على لسان الملكة الإغريقية هيلان (لتعلم الأمم و ليسجل التاريخ أنه لا عظمة و لا مجد و لا خلود إلا لمن عاش مجاهدا في سبيل الحرية و مات شهيدا في سبيل الوطن، انظر مرتاض ، فنون النثر ص 206.

[209]- أنور الجندي، الفكر والثقافة في شمال أفريقيا، مرجع سابق، ص 296.

[210]-- أنظر تقرير فرنسي عن أهمية هذا الكتاب، A .O. M - 9 H 4 46.

[211]- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 198.

لقد كنت خلال كل ذلك صريحا أقول كلمتي التي أعتقدها ، مهما كانت قاسية ومهما كانت شديدة وأبدي فكري علنا في انتقاد الحالة بصفة موضوعية علمية ، وأبشر بالمستقبل السعيد القريب في دائرة العروبة والإسلام والوطنية"[212]

وقد اعتبر المستشرق الأستاذ ديبارمي هذا الكتاب بأنه ألف بخلفية سياسية وطنية ولم يكن تأليف من اجل التأليف[213].

وكتب التقارير الفرنسية تبرز أهمية الكتاب وخطورته على مستقبل الوجود الفرنسي في الجزائر، فقد ذكرت أحد التقارير تكشف عن مستوى الكتاب مركزة على المحاور التي تبرز الهوية الجزائرية. مع ذكر خاتمة الكتاب بكاملها " هذه حياة الجزائر الإسلامية يا أخي بين يديك وأنمت سليل الأبطال ، وفي عروقك يجري دم عظماء الرجال ، فارفع جزائرك عاليا وسر بها والله يرعاك في طريق النهضة الكبرى ، النهضة القومية العربية الإسلامية ، وإذا ما هتف الناس بحياة أوطانهم ، فلترفع الرأس شامخا ، والعزة والكرامة ملء جوانحك ، ولتهتف على رؤوس الملا بصوت سمعه كل الناس : لتحيا الجزائر الخالدة"[214].

وفي تقرير من السيد مدير الشؤون الأهلية بالجزائر إلى الكاتب العام للحكومة مؤرخ بالجزائر في 9 جوان 1932 م كان الموضوع " كتاب الجزائر " للمدني ، جاء فيه أن المؤلف المنفي من الإيالة التونسية منذ سنوات بسبب مساهمته في الحزب الدستوري ، المؤلف لكتاب الجزائر قد تلقى عنه استفسار من المقيم العام الفرنسي بتونس يسأل فيه عن الترخيص لنشر هذا الكتاب الذي يحتوي على انتقادات سياسية للوجود الفرنسي[215].

---

[212]- أحمد توفيق المدني ،مرجع سابق ، ص 199 .

[213]-Desparmet, Naissance d'une histoire nationale de l'Algérie, A.F.Juillet, 1933.

[214]-- أنظر تقرير فرنسي يبرز أهمية الكتاب – A .O. M – 9 H 3 46.

[215]- أنظر تقرير مرسل من مدير الشؤون الأهلية بالجزائر الكتابة العامة للحكومة حول "كتاب الجزائر " ،مؤرخ بمدينة الجزائر في 9 جوان A.O. M. 9H46. 1932.

وقد عمد التقرير إلى ترجمة مقتطفات من الكتاب يدلل فيها على مدى خطورته على الوجود الفرنسي في الجزائر في أكتوبر 1871 م ، ونزول القوات الفرنسية في الجزائر 1830 م و السياسية الاستعمارية[216].

كما أسهم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي هو الآخر في إثراء التاريخ الوطني القومي للجزائر من خلال كتابه " تاريخ الجزائر العام " الذي استفاد صاحبه كثيرا من أخطاء من سبقه إلى الميدان ككتاب الشيخ الميلي ومن ثمة فقد جاء تاريخه أي الجيلالي أغزر مادة وتمسكا بالمنهج العلمي ، والعرض التاريخي من تاريخ الميلي فعندما تقرأ تاريخ الجيلالي تجد نفسك أمام مؤرخ غني ، يريد أن يطلعك على كل شيء ويريد أن يجعلك تلم بما ألم وتفيد من كل ما قرأ أو درس من كتب تاريخية وغير تاريخية فالتاريخ للأمّة الجزائرية وحدها ، ولكن الجيلالي لم يقتنع بهذا فمضى يتحدث لك عن الأمّة العربية بوجه عام وأنها أعقل الأمم و أرقاها تفكيرا[217].

ومن ثمة فإن قيمة الكتاب تكمن في موسوعيته وشموليته ، تمكن كل مطالع من الإحاطة علما ليس فقط بتاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى العهد العثماني بل يأخذ فكرة عامة من التاريخ العربي الإسلامي والدول التي اعتورت أرض الجزائر خلال العصور التاريخية المتباعدة[218].

---

[216]- المصدر السابق، - A O – M – 9 H 46.

[217]- عبد المالك مرتاض ، مرجع سابق، ص 221 .

[218]- المرجع نفسه، ص 224 .

و كان قصد الجيلالي من التأليف هو إبراز أهمية التاريخ في تنمية الحس الوطني وذلك من خلال (حمل الشاب الجزائري على احترام بلده و تمجيد تاريخه المشع لكي يمتلك في نفسه الثقة و تنغرس فيه الروح الوطنية و تأهيله لربط حاضره بماضيه)[219].

إن سعي المثقفين المؤرخين الجزائريين في ترسيخ التاريخ الوطني شكّل أكبر الأثر في تعزيز الهوية الوطنية بكل أبعادها الحضارية في نفوس الجزائريين الذي لا شك بأنه يعد المفتاح الحقيقي لدوائر الانتماء الحضاري بالنسبة للجزائر ، في فضائها العربي الإسلامي والتي وضع الشيخ ابن باديس أطرها التي تتمثل في دوائر الانتماء الحضاري بالنسبة للجزائر يقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس " وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآدابا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة ، ثم الوطن العربي ثم وطن الإنسانية العام ،نعم إن وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال ، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أننا لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص وأقرب هذه الأوطان[220].

[219]- Mohiédine Djender, Introduction à l'histoire d'Algérie, SNED, Oran, 1968, p124

[220]- الشيخ ابن باديس ، حياته وآثاره ، مجلد 2 ، ج 3 ، ص 237.

المحاضرة الخامسة عشرة: موقف العلماء الجزائريين من دعاة التجنيس.

عندما اشتد ساعد النهضة والحركة الوطنية أصبح ثمة خطاب هجومي على تيار التجنيس والاندماج يهدف إلى صيانة المجتمع من كل ما من شأنه أن يزرع بذور الفتنة فيه وفي هذا الصدد يطالعنا الأستاذ السعيد الزاهري بمقال تحت عنوان " العربية والنواب " كله انتقاد لاذع واستنكار لتواطؤ بعض النواب الجزائريين مع الإدارة الاستعمارية من الذين كانوا يروجون لفكرة نيل الحقوق عن طريق التجنيس .

وهو الأمر الخطير من الوجهة الاجتماعية والدينية والسياسية على الأمّة الجزائرية التي لها من المناعة بما يجعلها قادرة على إفشال كل المخططات التي تريد أن تنال منها "إنّ من يطلب من أمّتنا المسلمة أن تخرج من إسلامها وجنسها كمن يطلب منها أن تخرج من لحومها، ودمائها، وعظامها، وأمخاخها وان يكون ذلك أبدا لدهر وافرى الليالي ، فليخرج الجادون في هذا الأمر أنفسهم ولا يتعبوا في طلب ما يرجعون منه بغير الخيبة والإخفاق ولا يرجع على الأمّة إلا بالخسران "[221].

وركز الشيخ أبوا ليقظان على مبلغ الأضرار التي تصيب الأمّة من التجنيس بتعطيل شريعتها والانسلاخ من أورمتها فيقول :" التجنيس الذي عرفوه هو الانسلاخ من الجنسية الإسلامية والدخول في الجنسية الفرنسية بمعنى الاعتراف بفساد الشريعة الإسلامية وعدم الالتزام بأحكامها والاعتراف بصلاحية التشريع الفرنسي الوضعي والالتزام بأحكامه عليه وعلى ذريته من بعده"[222].

[221]- الأستاذ محمد السعيد الزاهري، العربية والنواب، جريدة البرق، عدد 18 (11 – 7 – 1927 م) .

[222]- الشيخ أبو اليقظان ، رأينا في التجنيس ، جريدة وادي ميزاب عدد 70 (17 – 2 – 1928 م).

وانطلاقا من هذه القناعة فقد حكم على المتجنسين بالردة والخروج عن الجادة في ذلك يقول:[223] "وأي ردّة أكبر من الانسلاخ عن الجنسية الإسلامية والرجوع عن شريعة الإسلام إلى اعتناق الجنسية الفرنسية والنزول في الأحكام على الشريعة الوضعية الفرنسية ، أم كيف يعد المتجنس مؤمنا والله سبحانه وتعالى يقول " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما "[224]

وهذا الموقف المبدئي الذي وقفه الشيخ أبو اليقظان من مسألة التجنيس سار على نهجه أيضا الأستاذ أحمد توفيق المدني الذي هاله هو الآخر ما كان يبيّت ضد الأمّة الجزائرية من مؤامرات على كيانها ومقوماتها، فراح هو الآخر من خلال مقاله الطويل الذي نشره بجريدة الإصلاح تحت عنوان " بين الموت والحياة " ،يكشف من خلاله عن معاناة الأمّة الجزائرية من أولئك الذين يريدون أن يلحقوا بها الضرر من حيث يريدون نفعها وهم في الواقع ضحايا من ضحايا الاستعمار فذكر في بداية مقاله " الخطر محدق بنا ، الهوة السحيقة فأغره فأهال ابتلاعنا وإنّه لخطر الاحتلال ، وإنّها لهوّة الموت والفناء ، فإن كان البعض منا لا ينتبهون قد أصاب العمى قلوبهم التي في الصدور [225].

وأوضح بأن طريقان قد فتحا أمام الجزائر الحديثة طريق التغريب الذي يتزعمه المتجنسون وطريق الأصالة والمحافظة على الشخصية الوطنية ، فأي الطريقين يتوجب على الجزائر سلكه وهي في فجر نهضتها ؟ إنه طريق الأصالة والمحافظة على الشخصية الوطنية العربية الإسلامية الذي يوصل إلى تحقيق مستقبلها الزاهر[226].

---

[223]- المرجع نفسه.

[224]- سورة النساء الآية 65.

[225]- أحمد توفيق المدني، بين الموت والحياة، جريدة الإصلاح عدد 27 /2/ 1930 م.

[226]- المرجع نفسه.

ويعود الأستاذ المدني إلى التاريخ مستحضرا الشواهد ليدلّل بها عن استحالة ذوبان الكيان الجزائري في كيان كلّ مستعمر ومسيطر "وهل يمكن لشعب الجزائر العربي المسلم أن يصبح شعبا فرنسيا خالصا في آدابه ولغته وتقاليده ، وعوائده ويتخلص في عدّة قرون من دمه الخاص ، وكل ميزاته ووراثته ؟

إن ذلك هو عين المستحيل ولا ريب أن أنصار التجنس والاندماج يدركون جدّ الإدراك أن الجزائر ليست بأول أمّة احتلت أرضها أمّة أخرى ، وأن الاحتلال الفرنسي ليس بأول احتلال وقع على أرض الجزائر ،لقد دام الاحتلال الروماني للجزائر رهيبا شديدا ، زهاء ستة قرون ، فما أصبح سكان الجزائر رومانيين أثناء تلك المدة ، و رضخوا قرنا لسلطة الوندال فما أصبحوا وندالا ، وأخيرا حكمهم الأتراك وهم أبناء دينهم زهاء ثلاثة قرون فلم يستتركوا ، فكيف تريدون أن تبتدع الجزائر سنّة جديدة في سنن العمران وتسعى لأن تندمج في أمّة غالبة ، متنازلة من كل ميزاتها الخاصة ؟ ذلك ما لم تقم به أيّة أمّة من أمم العالم وقعت تحت الاحتلال الأجنبي"[227]

ويستمر الأستاذ المدني في مقاله كاشفا زيف الوعود الفرنسية في تحقيق مساواة بين الجزائريين والأوربيين في الجزائر ، وخيبة آمال هؤلاء المتجنسين في نيل أي حقوق مسهبا في شرح هذه الفكرة فيقول " وقد تجنس قوم طمعا في الحصول على بعض الحقوق السياسية وعلى بعض المنافع المادية ، فخاب الأوّلون وخاب الآخرون فمن يتجنس طمعا في الانتفاع ؟.

كما يرى أنه لا يستطيع بتجنسه أن يبتاع قطعة أرض استعمارية لأنّ الاستعمار يشترط عدم بيعها للعربي ولو كان متجنسا ، ومن تجنس طمعا في الحقوق السياسية كان يقول : لو

[227]- . أحمد توفيق المدني، بين الموت والحياة، مرجع سابق.

أصبحت في الجزائر أغلبية متجنسة لنالت حقوقها ولتمكنت يوما من إدارة دفة الأمور في البلاد مع الفرنسيين ، وخاب هؤلاء خيبة جديدة وتلقوا درسا قاسيا مؤلما أثناء الانتخابات البلدية الأخيرة، فهناك في مدينة " المكلا" أغلبية متجنسة دخلت الميدان الانتخابي مع الفرنسيين وفازت فكان المجلس البلدي هنالك يشمل أغلبية جزائرية انتخبها الأهالي المتجنسون و أقليّة فرنسية مسيحية انتخبها الفرنسيون [228].

فمن كان يدعي أن المتجنس ينال كل حقوقه السياسية فليستمع لهذه النتيجة : رفع أمر " المكلا " إلى مجلس العمالة في الجزائر فقرر حل المجلس البلدي لأن الأغلبية الجزائرية مسلمة و إن كانت معتنقة الجنسية الفرنسية ولهذا فسياسة التجنيس والاندماج قد أخفقت تماما و أفلست كل الإفلاس وهكذا يخيب ويفلس كل أمر مخالف للسنن الطبيعية وقوانين الاجتماع " [229].

ويختم المقال بتأكيده ما بدأه من تقرير بمخاطر التجنيس والاندماج منبّها الأمّة الجزائرية بضرورة تمسكها بقيمها الحضارية العربية الإسلامية ، والاستمساك بعروة الوحدة الوطنية فيقول : "فيا شعب الجزائر ،عرى بيتك ودينك في حالة تلاش واضمحلال ، وناشئتك في جهل وإهمال ، وإنّ مستقبلك كأمّة إسلامية لبين يديك فإن شئت عملا صالحا فهذا أوان العمل الصالح ، ولا يكون العمل منتجا مثمرا إلا إذا كان رائده التضحية والاتحاد ، ونبذ كل خلاف و شقاق وعدم النظر إلاّ للواجب المفروض "[230].

---

[228]-- اعتبر عويداد أن إلغاء نتائج انتخابات (المكلا) يشكل حدثا ذا مغزى باعتبار أنه زرع الشك في نفوس المتجنسين و مسهم في كرامتهم كفرنسيين وأمام هذه الحقيقة المؤلمة لا يمكن مطلقا منع الاهالي المتجنسين من الإحساس بأنهم ليسوا إلا مواطنين من الدرجة الثانية.

Aoudad, la naturalisation nous confère-t-elle le droit de cité ?, voix des humbles, aout 1929, no 77.

[229]- المرجع نفسه .

[230]– أحمد توفيق المدني، بين الموت والحياة ، مرجع سابق.

أما الأستاذ الشيخ مبارك الميلي فقد اعتبر الاندماج أخطر على الأمّة من الأميّة والجمود لأنه يستهدف كيان الأمّة ومصيرها الحضاري فيقول "إنّ سياسة الاندماج هي القبر الذي لا نشور بعده ، إن البقاء على هذه الحال التي نحن متفقون على مقتها خير عندي من الاندماج ، لأنّ حياة منحطة خير من ميتة شاذة عن ميتة الأمم ، ولو أن المفكرين في صالح الجزائر و العاملين على تطهير عقولنا من الأوهام يتفقون كلّهم ، وهو ما لا يكون أبداءعلى فكرة الاندماج لوقفت في صف دعاة الجمود ،ونصراء الخرافات والأوهام ،لأني أرى ذلك خير من الاندماج[231]

واعتبر الشيخ الفضيل الورثلاني أن دعوة الاندماج ما هي إلا دعوة منافية لسياسة الأمر الواقع " الاستعماري " بحيث يبقى الجزائري محروما من كل حقوقه بينما الفرنسي متمتعا بكل الامتيازات " يجوز للفرنسي ، بل من حقه الطبيعي أن يتمتع بجميع وظائف الدولة الإدارية والقضائية والعسكرية ، أما الجزائري " المندمج " فإن القانون الفرنسي " الاندماجي "[232] لا يتيح له أن يتمتع بما فوق وظيفة مختار، لا يجوز له أن يكون قاضيا في محكمة أهلية ، ولا نائبا للقاضي ولا يجوز له كذلك أن يكون رئيس قسم بوليس ، ولا معاونا له .

هذا توضيح بسيط أقدمه إلى القارئ ليدرك أن الفرنسيين أنفسهم كانوا كاذبين في دعوى إدماج الجزائر في فرنسا و لا يزالون يكذبون حتى اليوم ويغالطون وإنّنا لنتحدى فرنسا أن تثبت غير ذلك "[233].

---

[231]– الشيخ عبد الرحمن شيبان، الغزو الثقافي بين الحصانة الذاتية و البناء الحضاري، مجلة الثقافة ،عدد 89 ،(1985م) ص11.

[232]– يتوافق هذا الطرح مع ما أقره الكاتب ألبير ميمي من مواليد تونس 1920 عندما اعتبر أن الاندماج لا يكفي لحصوله، التخلي عن الوسط الخاص بل يجب أن يتقبلك الوسط الآخر وهنا نجد الجدار المانع لذلك، وهي عنصرية المعمرين و عقليتهم الاستعلائية أنظر: ماكسيمنكو فلاديمير ، الإنتليجنسيا المغاربية، ترجمة عبد العزيز، 1994، ص 78 .

[233]– الشيخ الفضيل الورثلاني، الجزائر الثائرة ،دار الهدى ،عين مليلة الجزائر ،ط 3، د ت ،ص 58 .

ثم يضيف الشيخ الورتلاني مبرزا رفض الجزائريين في إلحاق أو إدماج مع غيرهم ما داموا قبل سنة 1830 م متمتعين بكامل السيادة على وطنهم فيقول "إنّ الجزائر قائمة بذاتها مستكملة الشروط والخصائص ، وإنّها كانت قائمة موجودة قبل وجود فرنسا ، ولا تزال وستضل موجودة إلى ما شاء الله رغم أنّ الجزائريين أحرار مثل الفرنسيين أنفسهم لا يريدون إدماجا و لا التحاقا ، و لا ذوبانا بأحد ، ولو أراد الجزائريون يوما ذلك الاندماج ، وكانت دواعيه وملابساته متوفرة وموانعه غير قائمة لما كان هذا الاندماج إلا بإخوانهم العرب دون سواهم "[234].

وعلى هذا النسق يأتي مقال الأستاذ ابن باديس هو الآخر ليكشف عن حقيقة الخديعة الفرنسية للمتجنسين الجزائريين المغرر بهم الذين ما كان لهم أن يتجنسوا لولا ما وعدوا به من حقوق وامتيازات.

صدر هذا بعد أن نشر زعيم المتجنسين رابح زناتي عن مأساة المتجنسين وخيبة آمالهم في فرنسا حيث علق الشيخ ابن باديس على مقال زناتي المعرب في الشهاب فقال "لقد بات معلوما ضروريا أن رفض أحكام الإسلام هو ارتداد عنه ، وما كان أكثر الذين فعلوا هذه الفعلة على قلتهم عالمين بهذه الحقيقة ،وما أقدموا على ما أقدموا عليه من رفض الإسلام إلا ببواعث الرغبة في عرض الدنيا ودواعي الطمع في نيل الحقوق الفرنسوية كالفرنسيين الحقيقيين ، ولكن هذه الرغبة لم تتم ، وهذا الطمع لم يتحقق وبقي القوم ويا للأسف معلقين لا من ملّة أباءهم ولا من الملّة الأخرى "[235].

و ليؤكد على حقيقة ضياع المتجنسين الذين خرجوا عن أصالتهم و اندمجوا في غيرهم من دون أن يحصلوا على شيء ،وضاعوا متخبطين يقول رابح زناتي في صوت الأهالي 26

[234]- الشيخ الفضيل الورثلاني، الجزائر الثائرة ، مرجع سابق، ص 58 - 59.

[235]- الشيخ ابن باديس ، أقر الخصم وارتفع النزاع ،مجلة الشهاب ،ج9 ،م 6، ص 574 (أكتوبر 1930 م).

مارس 1930 م " اليوم أهالي الجزائر صاروا ما بين نارين : الظلاميين الرافضين لكل تقدم ، والمعمرين المعارضين لكل وفيّ مادي وأدبي لهم، ومع استمرارنا في العمل بين القوتين لم نحصل على طائل ،إنّنا ضحايا ذهنيتين مختلفتين و حضارتين متعارضتين ، ولا أحد من أحد الطرفين يسعى لتسهيل التواصل الضروري ، كل طرف متشبث بمواقفه ، هذه هي الحقائق الجزائرية التي نريد أن نتجاهلها ، والتي هي في الحقيقة تساعدنا على تنمية وتكوين علاقات تقوم على قاعدة احترام المواقف الشخصية لكل إنسان بغض النظر عن عرقه وديانته ، وما دام الأمر لم نصل إليه لا نتوقع أي أمل للجزائر "[236].

وفي خطوة غير مسبوقة يطلق الأستاذ فرحات عباس بعد عودته من فرنسا النار على أمّته الجزائرية متنكرا لها وللوطن وللدين والتاريخ واللغة أي مكونات الهوية الجزائرية ، إنها الحرب على الذات لتدميرها و قفزة في المجهول للتماهي في الآخر ، فتحت عنوان أنا فرنسا كتب في جريدة الوفاق يقول: " إنّني فتشت عن الأمّة الجزائرية في التاريخ فلم أجد لها ذكرا ومكان لها بين الحضارات فلم أعثر لها على رسم ، وذهبت إلى القبور أسألها فلم أجد لها أثرا ، فكيف تطلبون مني أن أؤمن بوطن لا وجود له ، الوطنية هي ذلك الإحساس الذي يدفع بشعب أن يعيش داخل حدوده الإقليمية ، إحساس خلف هذه الشبكة من الأمم ،لو كنت اكتشفت الأمّة الجزائرية لكنت وطنيا ، ولن أخجل من ذلك ، كمن يخجل من جريمة، فالرجال الذين ماتوا من أجل المثل الوطني هم يوميا مكرّمون محترمون وحياتي ليست أهم من حياتهم ،ومع ذلك سوف لا أؤمن من أجل الوطن الجزائري ، لأن هذا الوطن غير موجود ولم أكتشفه، سألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات وزرت المقابر ، ولم يكلمني أحد عنه"[237].

---

[236]- R. Zenati , Devant les Réalités, voix Indigène 26 mars 1938

[237]- FERHAT ABBAS, LA FRANCE C'EST MOI, L'ENTENTE, 23 FEVRIER 1936

ورب ضارة نافعة ،فنفي الثابت قابله الشيخ ابن باديس بنفي النفي الذي يعني تأكيد الإثبات ، حيث كتب في شهابه ردا هادئا [238] ومفحما مترفعا عن كل ما يخدش كرامة الأشخاص ، وراح يبث الحقيقة فأصاب كبدها ، ولم يترك لخصوم الهوية الجزائرية ثلمة ولا منفذا للطعن فيها وبدا ساعتها ليس كرمز للإسلام في الجزائر فقط بل أيضا زعيما للوطنية الحقّة وفي ذلك يقول: " لو فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة ، لوجدنا الأمّة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ثم إنّ هذه الأمّة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمّة بعيدة من فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها بما فيها من حسن وقبيح ، شأن كل أمّة في الدنيا لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة "[239].

وقد اعتبر الدكتور عبد الله شريط أن قوّة الشيخ ابن باديس ليس فقط في أمانته في التعبير عن روح شعبه عند رده على فرحات عباس بأنّ الجزائر ليست فرنسا ولا تريد أن تكون فرنسا و لا تستطيع أن تكون فرنسا وإنما كانت قوّته في كون هذا الرد كان عمليا في حين بقي حكم فرحات عباس نظريا[240].

وأكد الشيخ ابن باديس على خطورة التجنيس على مستقبل الأمّة الجزائرية [241] ولذلك لم يكن يهادن في هذه المسألة حيث أصدر فتوى صريحة على المتجنسين تجعلهم خارج دائرة

---

[238]– هنالك رد لمالك بن نبي على مقال فرحات عباس ولكن العمودي رفض نشره ، حتى قام صديق بن نبي حمودة بن ساعي بنشره بإحدى جرائد قسنطينة سنة 1991.

انظر SADEK SELLAM HAMOUDA BENSAI, ISLAM DE France, 1999,p145

[239]- أنظر مجلة الشهاب ج1 م 12 أفريل 1936 م ، وآثاره ج 3 ص 308 – 309 في عنوان : الرد على فرحات عباس.

[240]- عبد الله شريط ،مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1986 م ،ص 112.

[241]- جاء في مراسلة المقيم العام الفرنسي بتونس إلى الوالي العام بالجزائر مؤرخة بتونس في 1937/ 01 / 19 أن من بين أهداف الشيخ عبد الحميد ابن باديس أثناء زيارته لتونس في ديسمبر 1936 م و هو البحث عن مزيد من التنسيق لتوحيد الخطة لمقاومة التجنيس بين الأحزاب الوطنية الجزائرية

الإسلام " التجنيس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية ،ومن رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع ،فالمتجنس مرتد بالإجماع والمتجنس بحكم القانون الفرنسي يجري تجنسه على نسله فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حضيرة الإسلام وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدين خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنايته "[242].

وقبل صدور فتوى الشيخ ابن باديس التي أزالت كل لبس أو غموض ،اعتبر الشيخ أبو العباس أحمد بن الهاشمي أن مسألة " التجنيس " تعد محنة من المحن الذي ابتلي بها المجتمع الجزائري المغلوب على أمره والمطرود من أرضه وممتلكاته ، حيث صار بعض النّاس يطمعون في نيل حقوق مقابل الإقدام على التجنيس معززا دعوته بشواهد دينية معتبرا أن الآية الكريمة " لتبلونّ في أموالهم وأنفسهم ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور " تأمر بالصبر والتقوى إزاء الابتلاء فقال " فالصبر والتقوى من عزم الأمور ، والتجنس ليس من الصبر"[243].

ونظر إلى التجنيس كذلك على أنه تبديلا اختياريا واتباع لغير سبيل المؤمنين ثم قال : "نحن لا ننكر ما نحن فيه من أنواع المحن ، وما يسد طريق المستقبل في وجه أولادنا ، ولكن هذه المحن بلغت ما بلغت لا تخرج من اصطلاح القرآن عن كونها فتنة ، والصبر

والتونسية حيث التقى مع زعماء الحزب الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة الكاتب العام للحزب والدكتور الماطري رئيس الحزب، كما التقى مع السيد محمد العيد جباري مؤسس الشبيبة الموحدة لشمال افريقيا والصحفي الطيب بن عيسى وجمع من الطلبة الجزائريين الزيتونيين أنظر A o M H469

[242]-- أنظر نص الفتوى في جريدة البصائر 14 جانفي 1938 م.

[243]- الشيخ أبو العباس أحمد بن الهاشمي، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا متالكم ، جريدة البصائر،عدد32 ،أوت 1936 م .

على فتنة النّاس أهون من التعرض لعذاب الله المشار إليه في قوله تعالى:" ومن النّاس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة النّاس كعذاب الله "[244]

وكما أصدر الشيخ الطيب العقبي فتوى في جويلية 1937 م حيث اعتبر فيها التجنيس ردّة عن الإسلام يتوجب على صاحبها التوبة" التجنيس بمعناه المعروف بشمال إفريقيا والإقدام عليه غير جائز بوجه من الوجوه ، ومن استبدل حكما واحدا من أوضاع البشر وقوانينهم بحكم من أحكام الشرع الإسلامي فهو كافر ومرتد عن دينه بإجماع المسلمين ، واعتبر توبتهم بقيدهم إلى الإسلام كإسلام غيرهم من أصحاب الملل الأخرى "[245].

ثم أعلن أنّ هذا الموقف شخصي لا يلزمه إلا هو ،وهو بهذا التعقيب يريد أن يضفي على موقفه طابع الاجتهاد الشخصي القابل للخطأ والصواب وبالتالي فهو ليس موقفا حاسما و لا باتا في قضية صعبة شائكة ولذا بقيت الأمور إلى حد ما ضبابية وقابلة للتأويل يمكن أن يجد فيها المتجنس متكأ يستند إليه . ويبدو أن هذا الموقف الشخصي للشيخ الطيب العقبي مستوحى من الفتوى التي أصدرها مجلسا الشرع في تونس المالكي والحنفي اللذين اعتبرا المتجنس مرتدا وأبقيا باب التوبة مفتوحة أمامه .

ولكن بعد طول انتظار يأتي موقف الشيخ ابن باديس الحاسم والبات ليزيل الضبابية [246] وهنا تتضح حنكة جمعية العلماء في الربط المباشر بين الشعور الديني والشعور الوطني ،فقد أخرجت الجمعية الدين من حيزه الفردي الضيق إلى حيزه الوطني وجعلته خادما للقضية الوطنية ،فتحوّل المسلم على جنسية غير جنسيته في نظر ابن باديس ارتداد بما يترتب عن

---

[244]- المرجع نفسه.

[245]- الشيخ الطيب العقبي ، مطالب الأمّة الجزائرية، جريدة البصائر ، عدد 30،جويليه 1936 م .

[246]- سالم الحداد ، صراع الهوية بين الأنا و الآخر، الأطلسية للنشر، ط1، 2000، ص 222 – 223 .

هذا الارتداد من أحكام دينية في الزواج والطلاق والميراث والموت[247]، وهذا بخلاف فرحات عباس الذي فصل بين الدين والوطن فقال : " إنّ الجزائر فرنسية وإنّنا فرنسيون لنا خصام إسلامي لأحوالنا الشخصية والمطلوب هو الانتقال من المستعمرة إلى المقاطعة"[248].

صدرت هذه الفتوى حينئذ في فترة كان الشعب ينتظر من يرفع راية التحدي ،فتأججت المشاعر الدينية ضد فرنسا وضد المنذلين لها من المتجنسين ، وتحوّلت نظرة الشعب إليهم من الاحترام والتقدير باعتبارهم فئة متميزة محظوظة إلى الاستخفاف والاحتقار لأنّهم من أهل الردّة باعوا دينهم وخانوا وطنهم مقابل امتيازات مادية خدعتهم بها فرنسا[249].

والواقع أن هذه الفتوى لا يجب أن ينظر إليها من زاوية الاجتهاد الديني، فقد أصاب ابن باديس جوهر الحقيقة من الناحية الوطنية ومن حيث الدور الذي لعبته في المحافظة على الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، لقد أوقفت التزيف الذي كاد أن يعصف بالجزائر ويهوي بها إلى الفرنسية[250].

فالمتجنس أصبح يشعر بأزمة داخلية نتيجة لاتهامه بالردة ، بل أحسّ أنّه مطارد أينما كان وفي كل لحظة، في البيت ، و في الشارع حيّا أو ميّتا ، هو وذريّته ويتخيّل نفسه وهو ميّت وقد انفض من حوله المسلمون ولا في المقابر الإسلامية ، وإنما تلقى جثته في مكان ناء منزو ومع الأوروبيين " الكفرة " ،إنه شعور مرعب مخيف تقشعر له الأبدان وتهتز له

---

[247]– لقد اعتبر زناتي فتاوى العلماء و منها فتوى الشيخ عبد الحميد بن باديس التي تحرم على المسلمين الصلاة ودفن المتجنسين في مقابر المسلمين بمثابة منع بالفعل لأي احتكاك بالغرب و اتصال مع فرنسا وكل فرنسة حقيقية.انظر:

R.Zenati, le problème Algérien vu par un indigène, supplément l'A, F, mai 1938, p 96 .

[248]- المرجع نفسه ،ص 224.

[249]- لقد صرح الأب دو فوكو أن سكان إمبراطورتينا الأفريقية على أنواع مختلفة منهم البربر وهم أقرب الناس إلينا ومنهم العرب وهم أقل استعدادا للتقدم ،وقال معلقا على تأسيس مدرسة فرنسية لاشك أن هذه المدرسة لن يدخلها إلا عدد قليل من الأطفال العرب ولكن الأطفال البرابرة الذين ينحدرون من سافلة طيبة المسيحية وهم على كامل الاستعداد للتأثر بالفكرة اللاتينية التي عرفوها من قبل سيدخلونها كلهم. انظر إيسلي الحركة الدينية و الإصلاحية، ماجستير ص 128، 129.

[250]– أحمد بن نعمان، مرجع سابق ، ص 129 .

الأحاسيس وتحتار له الألباب فتجعل المتجنس في معاناة دائمة ، كما اهتز النسيج العائلي الذي يتحرك فيه ، فير مضه الاحتكار للفضاء الإسلامي، و فقد وصايته على زوجته ، ولم تعد له صلاحية طلاقها.

وأمام هذه المؤامرة الاستعمارية التي باتت تشكل خطرا داهما على الهوية الوطنية ،راح الوطنيون الجزائريون يتصدون لها ويفضحون أهدافها الماكرة التي تستهدف ضرب الجزائر وكل بلاد المغرب في هويتها العربية الاسلامية.

فقد وقف الشيخ البشير الإبراهيمي يدفع عن الجزائر وكل البلدان المغاربية كلّ السهام الموجهة إليها والتي تريد إصابتها في معقلها المتمثل في هويتها العربية الإسلامية ،ومن ثمة توهن عقيدتها الإسلامية التي تفعّل بها مسيرتها التاريخية "ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية وقتل الموجود بالمعدوم، ليتم ما يريد من محو واستئصالهما معا، وإنما يعتمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة وممسكة الدين أن يزول"[251].

ويكشف الشيخ الإبراهيمي عن أباطيل الاستعمار التي تريد أن تشوّه الانتماء الحضاري للمجتمع المغاربي الذي صاغته قرون وقرون أوثقت هويته الحضارية في أبعادها العربية الإسلامية فيقول:" من أباطيل الاستعمار وتفاهته أنّه يسمي السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه أو لساعته فرنسيا، ويلحقه بنسبه ويساويه به في حقوقه ومميزاته ثم ينكر على البربري مثلا أن يكون عربيا، بعدما مرت عليه في الاستعراب ثلاثة عشر قرنا وزيادة، وبعد أن درج أكثر من ثلاثين جيلا من أجداده على الاستعراب لا يعرفون إلا العربية

[251]– محمد البشير الإبراهيمي، عروبية الشمال الإفريقي، جريدة البصائر عدد 150 (1951).

لغة يتكلمون بها و يتأدبون و يتعبدون فليت شعري أيهما أقرب إلى الواقع : البربري المستعرب أو السوداني المتفرنس ؟ و أيهما أنفذ ؟ حكم الله أم حكم الاستعمار ؟"[252].

كما اعتبر ابو اليقظان أن المارق عن دينه و المنسلخ من جنسيته شخص لا خلاق له، فهو أسير شهواته لا يثق فيه احد "إنّ من ينسلخ من قوميته ، ويمرق عن بيئته لا خلق و لا حظ ، ولا شأن له، حتى من عند من يسخر لمآربه ، بل يبقى شأنه مدة حياته، شأن القرد الممسوخ، لأن سيده يعلم حق العلم ما انسلخ من قوميته واندمج في عنصره إلا وهو جدير بأن يبيع هذا بقشرة بصل ما ترأى حاجته في ذلك فهو أسير شهوة لا أسير مبدأ.[253]

ما يمكن استنتاجه مما سبق ذكره هو أن الهوية الجزائرية إبان الحقبة الاستعمارية قد تعرضت إلى عملية تشويه و تمسيخ ، خاصة بعد أن نجح الاستعمار في إيجاد عدو لها من بني جلدتها أدار ظهره لمقومتها الحضارية العربية الإسلامية ثم جاهر و بادر في شن الحرب عليها ، و من ثمة اجتمع على حرب الهوية الوطنية أعداء الداخل و الخارج ، و لأن الإيمان بمقومات الهوية الجزائرية كان صلبا و متينا فإن مشاريع المحتلين من خلال سياسة الإدماج والتجنيس و الفرنسة و أعوانهم من أصحاب النزعات الطائفية ، لم يكتب لها النجاح حيث تحطمت على صخرة المقاومة الروحية الوطنية .

---

[252]- المرجع نفسه.

[253]- الشيخ أبو اليقظان، رأينا في التجنيس، مرجع سابق.

المحاضرة السادسة عشرة: قضية المرأة الجزائرية في الخطاب النهضوي الجزائري

قضية أخذت حيزا كبيرا في اهتمامات رجال النهضة الجزائرية الحديثة حيث أولوها عناية كبيرة و فائقة بعد أن أدركوا أن الكثير من معوقات النهضة ناتجة أساسا من ذلك التخلف التي تعيش فيه الأسرة الجزائرية التي تعد المنطلق الأساسي لترقية المجتمع أو تخلفه.

والواقع أن الشيخ الطهطاوي يعد أول من لمس الحاجة إلى "التربية" متأثرا في ذلك بما شاهده من المرأة الأوروبية و الفرنسية خاصة [254] حيث أكد في كتابه " المرشد الأمين لتعليم البنات و البنين" الفوائد الجمة التي يقطفها المجتمع من تعليم المرأة فيقول" ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات و الصبيان معا، لحسن معاشرة الأزواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدب و عقل و يصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي، فيعظمن في قلوبهم، ويعظم مقامهن ،لزوال ما فيهن من سخافة الفعل و الطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة المرأة مثلها، و ليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال و الأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقاتها، فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن من العمل يشغلن ألسنتهن بالأباطيل و قلوبهن بالأهواء و افتعال الأقاويل فالعمل يصون

المرأة عملا يليق ويقربها إلى الفضيلة[255].

[254]- فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص459.

[255]- الشيخ رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة ،ص 393.

واعتبر احترامها دليلا على التقدم و المدنية ذلك لأنه " كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم و ظرافتهم فعدم توفية النساء حقوقهن فيما ينبغي لهن الحرية فيه دليل على الطبيعة المتبربرة [256]

و يذهب الأستاذ علي مراد إلى أن ثمة تأثيرات خارجية وافدة على الجزائر هي التي جلبت مسألة قضية المرأة و تحررها من ثلاث قنوات:

1- تأثير البعث التركي اللائكي الذي يسوي بين المرأة و الرجل وقد جاء مع تركيا الحديثة .

2-تأثير حركة الإشعاع المصري" الحركة النسوية" التي تزعمها قاسم أمين صاحب كتاب تحرير المرأة

و المرأة الحديثة و التي لقت رواجا واسعا في الأوساط الأدبية، و مالك صفي ناصف[257] التي أسست الاتحاد النسوي المصري 1923 .

3 - التيار المفرنس بالمغرب المتأثر بالدعاية الوافدة من الشرق من طرف نخبة نسوية واسعة[258] .

ويذهب الأستاذ الشيخ توفيق المدني إلى أنّ المرأة الجزائرية رغم جهلها العظيم تمتاز بخلال كريمة و سجايا

طيبة فهي محافظة أتمّ المحافظة على التقاليد القديمة و العادات التي ورثتها عن الأسلاف، و هي مسلمة متينة الإيمان على قاعدة إيمان العجائز ثم زوجة أمينة ووفية تشاطر زوجها آلام الحياة دون جزع .[259]

---

[256]- محمد جميل منيمة، فجر النهضة العربية مرحلة الريادة الأولى: دراسة نقدية في فكر الطهطاوي ،مجلة الفكر العربي ،عدد 40/39،1985.

[257]- اهتمت بواقع المرأة في مجتمعها سائلة (ما الغرض من تربية البنت على العموم والمصرية على الخصوص؟ الغرض تقريبها من السعادة بقدر الإمكان واعدادها لأن تكون عضوا حيا نافعا في جسم الأمة وتهيئتها للقيام بأعباء الزوجية والأمومة. انظر شفيق العمروسي، باحثة البادية أول صوت نسائي يشارك في معركة تحرير المرأة، مجلة العربي، عدد287، أكتوبر 1982، ص 147 وما بعدها.

[258]- Ali Merad, Le réformisme musulman en Algérie, édition El-Hikma, Alger, 1999, p 272.

و بظهور الصحافة الجزائرية العربية مع بدايات القرن العشرين تعالت بعض الأصوات كذلك و لو بشكل محتشم بالدعوة إلى ضرورة العناية بشؤون المرأة الجزائرية، فقد كتب بن عزوز معمر عن حالة المرأة الجزائرية و ندد في مقال له لسياسة التجهيل ضد المرأة تحت غطاء العفاف و في ذلك قال:" قد تقرر في عقول الناس إن لم أقل جلّهم أنّ المرأة إذا تعلمت أدى تعليمها إلى مضار شتى فإنّها حتّى قدرت على تركيب جملة كتبت رسالة لزيد أو بيت شعر لعمرو، لأن النساء على مذهبهم، من طبعهن و طبيعتهن الخديعة و الخيانة، و عليه فاللبيب عندهم من يترك زوجته سابحة في بحر الجهالة وهذا حكم مناقض لما أمر الله و رسوله حيث أنه جاء في الحديث النبوي الشريف " العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" [260]

كما سجل في الربع الأول من القرن العشرين أيضا أصوات منادية بضرورة معاملة المرأة معاملة لا إجحاف و لا ظلم فيها في حدود ما تمليه قواعد الشريعة الإسلامية ،فقد ثار الأستاذ عمر بن قدور على ذلك الوضع الذي استعبد المرأة داعيا إلى تعلمها و النهوض بها " لما كانت المرأة المسلمة لسوء الحظ جاهلة أخرجت شقيا كسولا و أنبتت نباتا خبيثا ، تهيئ المرأة المسلمة أفكار أبنائها إلى التواكل والخمول والتكاسل و الجمود."[261].

و راح كاتب مصلح آخر يعدد مزايا التعليم و آثاره الطيبة على بناء الأسرة المتماسكة فقال:" ألم تر أن المرأة الكاتبة أطيب للمعاشرة للرجل الكاتب من امرأة جاهلة ، بربك هل تتصور سعادة ليست كمثلها سعادة يفوز بها الكاتب صاحب الكاتبة يتبادلان الأفكار و

---

[259]-- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر ، مرجع سابق، ص 362.

[260]- ابن عزوز معمر ،حالة المرأة ، جريدة كوكب أفريقيا، عدد187، (2-12-1910).

[261]- عمر بن قدور الجزائري، جهل المرأة المسلمة، جريدة الفاروق ،عدد 38 ، (23/ 11/ 1913).

يقلبان الدفاتر و الأسفار، فيستفيدان الغابر من الأخبار و يقتفيان ما عفا من الآثار، و تصور في ذهنك ما يستفيده منهما الولدان [262]

و مع بداية الربع الثاني من القرن العشرين نضجت الدعوة إلى معالجة قضية المرأة الجزائرية معالجة شاملة تجعل منها عنصرا فاعلا و متفاعلا في مجتمعه، يساهم في تنمية المجتمع مثلما يساهم في ذلك أخوها الرجل إدراكا من رجال النهضة لأهمية الدور الخطير الذي تضطلع به المرأة و أن أي مشروع إصلاحي نهضوي لا يأخذ بعين الاعتبار إصلاح و ترقية المرأة و دمجها في المجتمع مشروع محكوم عليه بالفشل ما دام الكثير من مسائل النهضة يتوقف نجاحها و تحقيقها على مدى نجاحنا أو إخفاقنا في ترقية شؤون المرأة [263].

و من الواضح أن قضية المرأة في خطاب النهضويين قد اتسم بالتمسك بالقواعد الشرعية الإسلامية من دون مزايدة في ذلك أو مناقصة غير عابئين و لا مبالين ولا منجرين وراء تيارات تريد معالجة قضية المرأة من منظور الفكر الغربي.

وهذا ما يعكس حقيقة أصالة الخطاب النهضوي الجزائري ،و قدرته على معالجة القضايا الاجتماعية التي كانت ولا زالت تمثل إشكالية تستدعي استمرارية المتابعة في معالجتها و البحث عن الحلول المواتية لها بما يتجاوب وتحديات العصر.

ولعل من أبرز النقاط التي استرعت أكثر من غيرها اهتمامات النهضويين فعملوا على معالجتها وإيجاد الحلول الناجعة لها:

أ- ترقية وضعية المرأة الجزائرية و الرفع من مكانتها.

---

[262]- أحمد بن الغزالي ،جواب عصري طبيعي، جريدة كوكب إفريقيا ،عدد 219، (14-7-1911).

[263]- الأستاذ توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 368.

ب- مقاومة السفور و التبرج.

ج. العمل على تربيتها و تعليمها.

المحاضرة السابعة عشرة: ترقية المرأة الجزائرية.

كانت المرأة إبان الحقبة الاستعمارية ترسف في قيود الجهل والتقاليد البالية التي انتعشت وازدهرت" فأبناء جلدتها لم يفكروا في تكوين مدارس أهلية لها بعد أن اضمحلت، فقد أبدى الإمام الشيخ ابن باديس اهتمامه بمكانة المرأة باعتبارها شقيقة الرجل و تشكل نصف المجتمع وهي الركن الركين الذي يقوم عليه بناء الأسرة فإهمال تربيتها و تركها جاهلة هو هدم لهذا الركن وتفكيك لبنة الأسرة و إضعاف لقدرتها على الاضطلاع بمسئوليتها التربوية و الاجتماعية ،فالمرأة خلقت لحفظ النسل وتربية الإنسان فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ولا نصف امرأة والمرأة التي تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها[264]

واعتبر الأستاذ علي مرحوم مكانة المرأة في المجتمع جد حساسة و تشكل فيه موقعا هاما" إن المرأة تمثل الدور الرئيسي على مسرح حياة الأمّة ،و من ثم فهي تؤلف بين أجزاء مجموعتها و تربط بين عناصر مجتمعها و تؤثر في نظام حياتها تأثيرا قويا ،و أن المرأة تشغل مركزا خطيرا في المجتمع و تسيطر على تكوين مستقبله و توجيهه إما إلى النور و إما إلى الظلام[265]

أما الأستاذ أحمد ذياب [266] فيرى أن صلاح الأمّة متوقف على صلاح المرأة فيه ،فبدونها لا يمكن أن نتصور وجود مجتمع " المرأة من الأمّة كالروح من الجسد إذا صلحت صلحت الأمّة كلها ،و إذا فسدت فسدت الأمّة كلها[267] .

---

[264]- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ،الجزء الخامس ،منشورات الشؤون الدينية ، دار البعث ،قسنطينة 1991 ،ص 441 .

[265]- الأستاذ علي مرحوم، بناتنا في المكاتب الفرنسية ،جريدة البصائر ،عدد80، ماي 1949.

[266]- أحد رجال الحركة الإصلاحية الجزائرية، ساهم بلسانه و قلمه في نهضة الجزائر، ولد ببلدة قنطرة قرب بسكرة سنة 1915 يقيم بمدينة البليدة ،زاول دراسته بالزيتونة ابتداء من 1935 و حصل على التحصيل سنة 1941 ،صار أستاذا بمعهد ابن باديس (1953-1956) ، مدير مدرسة حتى سنة 1962، شغل بعد الاستقلال منصب أستاذ العربية بثانوية الفتح بالبليدة .أنظر مرتاض، فنون من النثر الجزائري ،ص 486-487.

و ينظر الأستاذ حمزة بوكوشة إلى المرأة باعتبارها من وراء كل رقي وازدهار في الحياة فهي تشكل نصف المجتمع و لها فضل على النصف الأخر أيضا "هذه البنت التي نكلأها اليوم ستغدو الزوجة الوفية و الأم الحضية و الدار العامرة، و إنّها ليست نصف الأمّة فقط بل النصف الآخر من صنع يدها و صوغ قالبها و إنتاج معملها[268].

كما أن الوضع الذي حول المرأة إلى بحيم لا يطاق جعلها محل عطف من قبل الأستاذ رضا حوحو الذي عايش فترة من زمن شبابه الأول مأساة التخلف التي كانت عليها الفتاة الحجازية فأهدى روايته "غادة أم القرى" [269] للمرأة الجزائرية قائلا:" إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب، من نعمة العلم من نعمة الحرية إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود ، إلى المرأة الجزائرية أقدم هذه القصة ، تعزية و سلوى[270].

بل إنّ نهضات الشعوب عبر العصور هي إسهام الرجال و النساء معا و هذا ما حدا بالأستاذ مالك بن نبي إلى تأكيد دورها في مراحل البناء الحضاري و من ثم فأي تعطيل لدورها في العمل و الوظيفة أو في التربية و الرعاية هو تعطيل لطاقة هامّة تساعد بشكل أساسي على البناء التقدمي في مسيرة التحضير" فالمرأة و الرجل يكوّنان الفرد في المجتمع فهي شق الفرد، كما أن الرجل شقه الأخر، ولا غرو فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول: "النساء شقائق الرجال"، فالمرأة و الرجل قطبا الإنسانية، و لا معنى لأحدهما بغير

---

[267]- أحمد بن ذياب ،الأسرة في الشريعة ، جريدة البصائر عدد 75 ،(1949/4/11).

[268]- الشيخ حمزة بوكوشة، قيمة المرأة في المجتمع ، جريدة البصائر، عدد 8 ،(21فيفري 1936).

[269]- رواية "غادة أم القرى" للأديب رضا حوحو لماكان مقيما بالحجاز ،طبعت بتونس سنة 1947 و هي مرآة عاكسة لوضع المرأة الحجازية في مطلع القرن العشرين، وقد قامت جريدة البصائر بعملية إشهار لشراء رواية "غادة أم القرى". أنظر مرتاض، فنون من النثر الجزائري ،ص 191.

[270]- مرتاض، فنون من النثر الجزائري، ص 193.

الآخر فلئن كان الرجل قد أتي في مجال الفن والعلم بالمعجزات فالمرأة قد كونت نوابغ "[271].

و للمرأة الدور الخطير في إعداد الأشخاص و هي مؤشر النجاح أو الفشل، و لذلك يلاحظ أن الاستهتار بدورها التربوي في المجتمعات الأوربية قد أدى إلى تفكك الأسرة و تداعي أركانها مما انعكس انحدارا في مستوى العلاقات الاجتماعية، و من ثم دوسا لكرامة الإنسان ، و تدنيسا لإنسانيته[272].

فاعتبر بن نبي الوضع الذي آلت إليه المرأة الأوروبية وضعا مزريا لا يمكن أن يكون قدوة لغيرها مادام هذا الوضع قد أخرجها من صميم أنوثتها ،فصارت في نفسيتها و طبيعتها البشرية مشوهة لا هي بقيت امرأة ولا هي صارت رجلا ذلك "لأن الذي حررها قذف بها إلى أتون المصنع و إلى المكتب وقال لها :عليك أن تأكلي من عرق جبينك، في بيئة مليئة بالأخطار على أخلاقها و تركها في حرية مشؤومة ليس لها و لا للمجتمع فيها نفع، ففقدت وهي مخزون العواطف الإنسانية الشعور بالعاطفة دون أن تبقى امرأة ،و هكذا حرم المجتمع من هذا العنصر في بناء الأسرة وهو العنصر الأساسي فيها وجنت أوربا ثمار هذه الأسرة المنحلة مشكلات من نوع جديد[273]

فالإسلام في نظره هو الذي أنصف المرأة وجعلها على قد المساواة مع أخيها الرجل ،تتقاسم معه أعباء الحياة وتشعر بقيمة الكرامة الإنسانية " حين جاء الاسلام كبح في الذكر دوافع الجفاء والتحطيم، ولم يترك له إلا قدرة التغلب على النفس و قدم التنظيم والتوجيه، فكوّن بذلك مجتمعا تتمتع فيه المرأة بكثير من الحقوق، مقابل بعض الواجبات حتى أن

---

[271]- مالك بن نبي، شروط النهضة ،مرجع سابق ،ص 115-116 .

[272]- أسعد السحمراني ، مرجع سابق ، ص 213.

[273]- مالك بن نبي، شروط النهضة ، مرجع سابق ،ص 119.

الفقه الاسلامي لم يفرض عليها إلا واجب الزوجية ، أما الواجبات المنزلية كالغسيل والطبخ فإنها ليست مطلوبة منها، وحتى الرضاعة ليست فرضا عليها، بل على الزوج أن يأتي بمرضعة لولده"[274] .

مثل هذا التأكيد على قيمة الوظيفة التي تضطلع بها المرأة لم تتوقف عند خطاب رجال النهضة ومفكريها بل تعدت إلى الأصوات النسائية الجزائرية، حيث ذهبت الكاتبة مليكة بن عامر [275]إلى التأكيد على حق المرأة الجزائرية لمشاركة الرجل في الحياة العلمية والثقافية مؤيدة حقها في العمل" إننا ننتظر يوما ليس ببعيد تكون المرأة فيه تشاطر الرجل في سائر أعماله و تساعده على القيام بالأمور المهمة التي نرجو من ورائها خيرا كثيرا و نفعا عظيما "[276].

و عندها أن الإسلام هو الذي أعاد الاعتبار للمرأة و حرّرها من ربقة العبودية التي كانت فيها قرونا متطاولة "فهذا الدين الإسلامي الشريف هو الذي أعتق المرأة من العبودية التي كانت سائدة في الزمان الجاهلي وحررها من قيودها و أغلالها التي كانت مقيدة بها آنذاك، فقد كانت في ذلك الوقت المظلم لا تعرف لها قيمة ولا يقام لها وزن، شأنها شأن متاع البيت و أثاثه و لا ميزة تميزها، و لكن الإسلام الحنيف عندما جاء بمبادئه الصادقة و تعاليمه الفاضلة، قرر لهذه المرأة مصيرا محمودا فعرفها قدرها ورفع شأنها ،ومنحها حقها ،وأحياها بعد موتها، و حدد لها مهمتها في الحياة [277].

---

[274]- مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر بالجزائر ودمشق، ط (1) ،1412 هـ/1991م ،ص 110.

[275]- كاتبة جزائرية كانت تنشر مقالات في الإصلاح الاجتماعي بجريدة البصائر الثانية.

[276]- مليكة بن عامر، المرأة الجزائرية بين الحاضر و المستقبل ،جريدة البصائر عدد (20 ماي 1955).

[277]- المرجع نفسه.

الأمر الذي جعل هذه المرأة الجزائرية المتفقهة في أمور دينها تدرك ما لها وما عليها في الحياة ،فانطلقت تسهم في ترقية أمتها وخدمة وطنها" فلما عرفت المرأة الجزائرية هذا كله، و أدركت نصيبا من الثقافة العلمية والتحلي بالأخلاق الفاضلة و الآداب الكاملة ،وتحققت بأنّها هي التي تنير السبيل لأمّتها بالعلم و المعارف، قامت ونفضت غبار الخمول و الركود و بدأت تترك الجهل و آثاره و تتبع العلم و أقطاره و أصبحت تبني لأجيالنا الحاضرة و المستقبلة أساسا صحيحا و بنيانا مرصوصا، وهي تحرض أخواتها على الاجتهاد و القيام بواجبهن نحو دينهن، و لغتهن ،وأمتهن، ووطنهن، وشريعة دينهن السمحة[278]

و مبشرة بمستقبل زاهر لهذه المرأة الجزائرية الواعية و المسؤولية التي تتحملها في تحرير وطنها من كل أشكال التعسف و التخلف "سيكون للمرأة الجزائرية شأن عظيم يذكر ، و عمل صالح يؤثر تتناقله الأجيال و يتحدث به التاريخ الذي لا يظلم واحد بهذا الوطن، فإن مستقبلها يوجب عليها أن تكون مكافحة في ميادين العلم والثقافة، تحارب الجهل و الرذيلة، و تستبسل في الدفاع عن نفسها و عن أمّتها، ارفعي رايتك أيتها الفتاة الجزائرية و قومي بنصيبك فإنّ التاريخ خير شاهد على فضلك و خير معترف بجهودك رغم أنف المكابرين و الجاحدين[279].

إنّ هذه الدعوة لمكانة المرأة في المجتمع يعكس في الحقيقة وعي النخبة المثقفة و المتنورة في ذلك الوقت بالدور الهام والخطير الذي تضطلع به المرأة في المجتمع في الكثير من مناحي الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و التربوية، و يتفق هذا الطرح مع الأبحاث الحديثة التي نظرت إلى مكانة المرأة ووظيفتها في الحياة نظرة شمولية بكل أبعادها الإنسانية و الاجتماعية و الاقتصادية " إنّ التربية لم تعد تقتصر على إنجاب الأطفال و تقديم الحاجات

[278]– مليكة بن عامر، المرأة الجزائرية بين الحاضر و المستقبل، مرجع سابق.

[279]– المرجع نفسه

الأساسية لهم من مأكل وملبس و حماية ،ولم تعد هذه الأمور بكافية وإن تحققت جميعا، لتأمينهم ضد المرض والتخلف بشتى جوانبه فإعداد الأم هو إعداد للنشء نفسه لتأهيله لتبوء المراكز الإنتاجية التي يرغبها المجتمع وتتعايش مع سلم التقدم والحضارة"[280].

و هذا الإدراك الكبير من العلماء لدور المرأة و مكانتها في المجتمع و حتى تبقى وفية لوظيفتها راحوا يؤكدون على ضرورة محافظتها على أصالتها العربية الإسلامية بعيدا عن كل تشدد أو تطرف وغلو أو تأثر بحركة السفور الوافدة على البلاد و التي تشكل في نظر العلماء إضافة لسموم الغرب الطامحة للنيل من عفاف المرأة الجزائرية و سلوكها الإسلامي ، فشكل ذلك معركة بين أنصار الأصالة و أنصار السفور و التغريب فكيف برزت هذه المعركة وكيف تصدى لها المصلحون؟

[280]- صلاح الدين أبو صالح، المرأة العربية ودورها في التنمية، مجلة دراسات عربية، العدد2 ، السنة السابعة و العشرون ديسمبر 1990، ص 80.

المحاضرة الثامنة عشرة: مقاومة دعاة السفور و أدعياؤه

على الرغم من الظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت تحيي فيها المرأة الجزائرية و حملات التنصير التي كانت سهام الاستعمار و أدعياؤه تريد النيل منها، و التأثير على شخصيتها العربية الإسلامية [281] فقد بقيت صامدة متحدية محافظة على حجابها متمسكة بأهدافه تمسكا شديدا بشهادة الفرنسيين أنفسهم[282].

و لما راحت الحملات التغريبية المسعورة تهاجم قيم المجتمع الجزائري و تريد النيل منها حتى يمكن لها سلخه من انتمائه الحضاري العربي الإسلامي و من ثم إذابته في بوتقة المدنية الغربية و رأوا في المرأة الهدف الكبير لهم فإذا حققوه حققوا كل شيء بعده لذلك سعوا لجعل المرأة الجزائرية نسخة ثانية من المرأة الغربية "[283] .

هب نفر من المفكرين المتنورين يذودون بخطبهم و أقلامهم عن حياض الأمّة و يدافعون عن قيم الأسرة الجزائرية ضد الذوبان و الانحلال ،فقد نظر الأستاذ رمضان حمود إلى هذه الحملات العنيفة على الأسرة الجزائرية على أنه عدوان آثم ينبغي التصدي له و الوقوف في وجهه لأنه يريد فقط تمسيخ المرأة الجزائرية المسلمة باسم التمدن و التجديد و المناداة بخروجها من بيتها سافرة مكشوفة المفاتن معتبرا هؤلاء المقلدين للغرب تقليدا أعمى وبالا على الأمّة داعيا بلهجة حادة إلى وجوب التصدي لهم" أيها الشرقيون ، يا من لا يزالون في مرحلتهم الأولى من نهوضهم، إن كان هناك ما يسمى نهوض بالمعنى الحقيقي، و يا من ينظر إليهم العالم بأسره بعين الأمل حبّا في إنقاذه من مخالب المادة السامة، قوموا من نومكم

---

[281]- اعتبر بعض المثقفين الفرنسيين مطالبة النخبة الجزائرية بالحريات كالفرنسيين ما داموا يعتقدون بأنهم قد وصلوا إلى درجة كبيرة من التحضر ، ناسيين بأنهم لم يحركوا ساكنا في مسألة تحرير نسائهم وبناتهم اللواتي يعشن في عزلة وقصور تفكير، و يعكس هذا عدم ارتياحهم لبقاء المرأة الجزائرية محافظة على قيمها وتقاليدها أنظر:L'Afrique Française, sup Mai 1938,p91 .

[282]- محمد ناصر، المقالة الصحفية ،ج1 ،ص 244.

[283]-- ليلى بن ذياب، اخترت لكم المرأة والمجتمع ،جريدة البصائر ،عدد 163 ، جويلية 1951.

و هبّوا في سكونكم، فإن المرأة ليست مستعبدة و لا شقيّة كما تزعمون ولكنها حرّة سعيدة في بيتها مع زوجها و أفلاذ كبدها إنها لا تشكو إلا من جلبتم و ضوضاء كم حولها إنها في هناء و سلامة مادامت في جانب و أصواتكم المزعجة في جانب[284] .

ويدعو هؤلاء المتغربين للكف عن استدراج المرأة المسلمة إلى الشارع باسم الموضة تفتح لها أبواب الفساد و الضياع" إنها تقوم بشؤون بيتها و تربية أولادها ما سلمت من غمزاتكم الشيطانية، إنها نظيفة الذيل طاهرة القلب صالحة ما لم تفتحوا باب منزلها و جنتها الأرضية و تنادوها بالسفور و الخروج إلى جهنم الفتن و معارك الشهوات حيث أبطال الدعارة يجولون ويصولون، إنها راضية و مغتبطة بالعيش ما دام قلبها لا يشغلها إلا رب منزلها ووحيدها إنها في هناء و سلامة ما دمتم لم تضعوا في عنقها الرطب سلاسل "الموضة" الثقيلة[285] .

و مثل هذه الدعوة إلى إقصاء الحجاب الذي يعد لباسا شرعيا للمرأة المسلمة في نظر الأستاذ الزاهري دعوة آثمة ليس لها من غاية سوى هدم الأسرة المسلمة فهم يطمحون إلى سيادة السفور على الحجاب و يحثون المرأة الجزائرية على سلوك ذلك المسلك حتى تكون كالمرأة الفرنسية حرية وسفورا حيث اعتبر أن تلك الحركة حركة "الإلحاد و التقليدو ليست حركة تجديد لأن غايتها التفرنج و الاندماج في الغرب اندماجا تاما بكل معنى الكلمة و من وراء هذا السعي ناس تعلم أكثرهم في مدارس أجنبية غير إسلامية أسست لمثل هذه الغاية في الشرق[286].

---

[284]- الشيخ رمضان حمود، دعاة التجديد ،جريدة وادي ميزاب ،عدد 113 ،(21-12-1928) .

[285]- المرجع نفسه.

[286]- محمد السعيد الزاهري، الإسلام في حاجة إلى دعاية و تبشير، ص 60-61.

و يدافع الشيخ الزاهري عن "الحجاب" و مبرراته فيقول:" إن الحجاب أيها السادة هو فصل ما بين الرجل و المرأة لتنقطع هي إلى منزلها تصلحه وتربي أولادها و ينقطع هو إلى العمل والاكتساب خارج البيت ثم ماذا تريدون من سفور المرأة المسلمة الجزائرية؟ تقولون أنكم تريدون لها أن تخرج إلى ميدان العمل والجهاد ولكن هل نسيتم أنكم في بلد، أكثر أبنائه في عطلة و أكثر أبنائه في عطلة وبطالة؟ فهل تريدون لنسائنا أن يعشن أيضا عاطلات متشردات؟ يذرعن الطرقات جيئة وذهابا طول النهار وزلفا من الليل [287] .

و يرد على الذين يقولون بأن العفة ليست في ارتداء الحجاب ساخرا من دعاة السفور:" إنه مهما بالغ دعاة السفور في دعوى أن العفة ليست في ارتداء الحجاب فما هم بقادرين على أن ينكروا أن الحجاب هو أعون على العفاف، و أنه أقرب للتقوى ، في أي جو من أجواء السفور تستطيعون أن تجدوا العفاف أيها السادة الإخوان؟ تجدونه في هذه الحضارة اللامعة التي تسيل خلاعة و استهتارا؟ أم أين تجدونه إلا حيث لا يكون سفورا؟ أو حيث لا يكون اختلاط بين الرجال و النساء [288]،وبما أن مراكز الإغراء قد وضعت لتكون مصائد للعفيفات من النساء فقد حذر الشيخ الزاهري منها صيانة للأخلاق و التماسك الأسري. وفي ذلك يقول :" لا أريد أن أنبهكم يا سادتي إلى هذه الملاعب و المراقص والملاهي والمسارح الحمروات (جمع الحمراء) وما يكون فيها من إثم وغي ولا إلى هذه الروايات التي تمثلها دور السينما في الصور المتحركة فتتمثل فيها الغواية و الضلال تمثيلا يغري الزوجة بالغدر والخيانة و يزين لها ذلك تزينا وهل أكثر الروايات التي يسمونها

[287]- المرجع نفسه، ص62.

[288]- المرجع نفسه، ص64.

روايات حب و غرام الا روايات غدر وخيانة وإثم سميت بغير أسمائها و تضليلا و دعاية إلى الشر والفساد[289].

أما الأستاذ الشيخ أبو اليقظان فقد راعه ذلك الاستخفاف بالحجاب من قبل كاتب تونسي[290]الذي لم يتورع على اتهام الحجاب بأنه وسيلة تستر على ارتكاب الجرائم و" إن حجاب المرأة أخطر على عفتها من السفور، و أن الحجاب ليس إلا تقية محكمة تمكنهن من القيام بأخطر الأدوار [291]، فرد عليه ردا مفحما كاشفا له زيف ما يدعيه زورا وبهتانا على الحجاب الذي يوفر العفة و الفضيلة ".

و إذا كان الحجاب تقية محكمة للقيام بأدوار خطيرة فهل يكون سفور المرأة، و هي ناقصة عقل ودين سياجا وحصنا حصينا لطهرها وعفافها؟ إذا رأيت يا حضرة الناقد في السفور ومع تهذيب أخلاقها صيانة و سياجا لعفافها أفلا ترى الحجاب مع تهذيبها أكثف سياجا و أقوى وقاية لطهرها؟ [292]

و لأن هذا الكاتب بجريدة النديم التونسية عنيدا ، فقد أخذته العزة بالإثم فرد على الشيخ أبو اليقظان بلغة شديدة اللهجة على صفحات جريدة لسان الشعب التونسية في عددها 285 الأمر الذي جعل الشيخ أبو اليقظان يجرد قلمه كالحسام فيدبج مقالين طويلين تحت عنوان " أردنا نصيحة فأراد فضيحة" ،دعم فيها مشروعية الحجاب و مصداقيته بأدلة نقلية و عقلية و أقوال اعتراف بعض دعاة السفور أنفسهم ، وقد أجمل وجهة نظره حول أحقية الحجاب

---

[289]- المرجع نفسه، ص64.

[290]- هو الكاتب الهادي العبيدي الذي عرف بمقالاته الصحفية، كان من المشجعين للنساء المتعلمات اللاتي بدأن يسعين منذ عام 1928م في تأسيس الجمعيات و النوادي النسائية ،و بسبب دعوته إلى السفور أثير بينه و بين دعاة المحافظة على القيم الإسلامية الأصيلة جدال قلمي فتحت له أعمدتها صحف تونسية ك "النهضة" و " الوزير "وطريق الصواب" و صحف الجزائر كجريدة وادي ميزاب .أنظر أحمد خالد، أضواء من البيئة التونسية والطاهر الحداد و نضال جيل ،الدار التونسية للنشر، ط(3) ،1976،ص 254 وما بعدها.

[291]- الشيخ أبو اليقظان، همسة في أذن ناقد النديم ، جريدة وادي ميزاب ،عدد 67،(271-1928) .

[292]- المرجع نفسه .

و بطلان السفور في قوله:" و الحقيقة أن مسألة السفور والحجاب مسألة جمود و حركة ورقي و انحطاط و علم و جهل، بل هي مسألة تدين و تجرد ، عفاف وتهتك ، عقل و طيش ، وجملة هذه فتنة من فتن أوروبا خدعت بها أغرار المسلمين لينصرفوا عن واجباتهم الدينية و الوطنية الحقيقية [293]

يندرج في هذا السياق كذلك موقف الإمام الشيخ ابن باديس الملتزم بخط الإمام الشيخ رشيد رضا، حيث نظر إلى قضية المرأة من منطلق قواعد الشريعة الإسلامية ،وهذا ما تؤكده إعادة نشر مقال مطول للشيخ رضا الذي سبق نشره في مناره تحت عنوان " حكم الله في المساواة بين الرجال والنساء "[294]

فقد اتفق الشيخان رضا و ابن باديس على وجوب المحافظة على حجاب المرأة التقليدية وعدم تربيتها تربية استقلالية حرة في جميع ميادين العلم و المعرفة ،و أقر بسلطة الزوج عليها و إشرافه على حظوظ الأسرة دونها[295].

وكذلك نجد الشهاب عندما قدم كتاب " امرأتنا"[296] للشيخ الطاهر الحداد[297] ،لم تمدحه و تحث على قراءته والاستفادة منه بل كشفت عن خطورته على الدين و القيم و بينت للقراء تعارض مضامينه و محتوياته مع تعاليم الشريعة الإسلامية .

---

[293]- الشيخ أبو اليقظان، أردنا نصيحة فأراد فضيحة، جريدة وادي ميزاب ع (2/ 3/ 1928).

[294]- أنظر الشهاب، الأعداد ج6 م 6 إلى ج1 م 7.

[295]- محمد الصالح المراكشي، قراءات في الفكر العربي الحديث و المعاصر، الدار التونسية للنشر، 1992، ص 112.

[296]- هو كتاب ألفه الطاهر الحداد سنة 1930م دافع فيه عن السفور ، اعتقادا منه بأن ذلك خطوة على درب التقدم كما فعل أتاتورك في تركيا لما حارب قيمها الإسلامية و لكن هل تطورت؟، ولعل من أبرز من رد على الحداد في تونس الشيخ محمد الصلح بن عواد في كتابه الذي يحمل عنوان " الحداد على امرأة الحداد"، أنظر أحمد خالد أضواء من البيئة التونسية ص336 وما بعدها.

[297]- الطاهر الحداد كاتب و أديب تونسي ،أحد مؤسسي النقابة الأولى بتونس ولد ونشأ بمدينة تونس سنة 1889م وتوفي سنة ، 1935 درس بجامع الزيتونة حاز على شهادة التطويع سنة 1920م كان من دعاة تحرر المرأة إلى حد الخروج عن تعاليم الشريعة فأثار ضده المصلحين، للمزيد أنظر جعفر ماجد، الطاهر حداد ،الشركة التونسية للنشر تونس ،1979.

فقد ذكر صاحب الشهاب الشيخ ابن باديس أنه اعتقد لما حدثه صاحب الكتاب [298]عنه أنه يدعو فيه للنهوض بالمرأة نهوضا صحيحا و تعليمها تعليما مفيدا في حدود إسلامها التي هي بنظر كل عاقل منصف حدود بالإنسانية طرحه حيث لم يدع الشرقية لطرح حجابها، و قد تفاجأ الشيخ ابن باديس من تطاول الشيخ الحداد على الشريعة بإبطاله لآيات من القرآن الكريم و أحكامه القاطعة [299]"و ما توقعنا من أنه يكون ممن يدعونا إلى الذهاب بها في تيار المدنية الغربية إلى ما يخرجها عن حدود دينها ووظيفة أنوثتها، فإذا بنا لما أهدى لنا كتابه و طالعناه وجدنا ما هو أدهى من ذلك و أمر، وجدناه يدعو إلى إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الصريحة القطعية الاجماعية ، و تعطيل آيات عديدة من آياته بدعوى أنها غير لائقة بالنساء في هذا العصر ، و هذا هو الجحود نفسه لبعض القرآن وجحود بعضه كجحود كله في مفارقة الإسلام"[300] .

ثم يضيف الشيخ ابن باديس" فجهل هذا الأصل الشيخ الحداد أم رضي بنفسه بانطباقه عليه؟ نحن لا نخشى على المسلمين من دعوته شيئا لأنه من المعلوم الضروري عندهم أن جحود شيء من القرآن كفر به و إنما نخشى عليه هو أن يستمر عندهم على عقيدته فيكون من الهالكين و ربما عدنا إلى الكتاب في فرصة أخرى[301]

كما علقت الشهاب على محاضرة ألقتها بعض المتبرجات بتونس تدعو فيها إلى السفور حيث قوبلت بالاستنكار و الرفض من الأمة التونسية " و في الحق أن التفكير في رفع حجاب

---

[298]- حيث تتلمذ الحداد على الشيخ ابن باديس لما كان طالبا في الزيتونة سنة 1912، وقد اشتمل دفتر الحداد على إطراء بعض مشايخه مثل الشيخ ابن باديس حيث شهد له فيما قرأ عليه بالمواظبة و الفهم و الأدب .أنظر أحمد الدرعي، دفاعا عن الحداد تقديم و تحقيق محمد أنور بو سنينة تونس 1976 ص 12.

[299]- أنظر الشهاب كتاب "امرأتنا " للشيخ الطاهر الحداد ج 11 م 6 (رجب 1349 ديسمبر 1930) ص 714 و يبدو هو تعليق للشيخ ابن باديس.

[300]- المرجع نفسه، ص 714.

[301]- المرجع نفسه، ص 715.

الجهل عن عقل الفتاة بالتعليم القومي يجب أن يكون قبل التفكير في رفع حجاب الحياء عن وجهها بالتقليد الأجنبي و أن من يرى غير هذا مخادع أو مخدوع ولا خير فيهما. "[302]

أما الشاعر محمد العيد آل خليفة فقد دافع هو الآخر عن حجاب المرأة المسلمة و لم يرض لها بديلا عنه و اعتبره حصنا واقيا لها من كل الذي يمكن أن يلحق بها الشرور و الآثام لأن عصمة المرأة في العفة والاحتشام.

كيف ينجو من الشرور نساء لا يواري وجوههن لثام

عصمة المرأة احتجاب و صون و آباء و عفة و احتشام[303]

داعيا في نفس الوقت إلى فسح المجال لها لكي تتعلم ما يمكن أن يكون سلاحا لها تدرأ به عن نفسها ،ذلك أن المرأة المتعلمة لا تتجاسر على المعصية فعلمها يمنعها من ذلك أما الجاهلة فعادة ما تكون ضحية كل محتال و نصاب .

علموا المرأة الحقائق في الدين فقد طرحت بها الأوهام

علموها كيف الوقاية مما هاجمته شره الأيام

لا تغرنك بضاعة نخاسين كانت بها الدماء تسام

آتوا النساء نصيبهن من الهدى يخرجن نشئا كالرماح الشرع [304]

و تتوافق هذه النظرة إلى المرأة بما جاء عند الشاعر حافظ إبراهيم الذي اعتبر المرأة بمثابة مدرسة أولى في المجتمع

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

---

[302]- أنظر الشهاب " الصون و التبرج" ج1 م 5 (رمضان 1347هـ/فيفري 1929) .

[303]- أبو القاسم سعد الله ، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ،دار المعارف، 1961م ص 59 .

[304]- المرجع السابق، ص 59 -60.

و إذا كان التوجه العام للجزائريين ينحو منحى مدرسة الإصلاح الكبرى التي يمثلها تلميذ الشيخ محمد عبده الأستاذ الشيخ رشيد رضا في النظر إلى قضية هندام المرأة الجزائرية من منظور شرعي حيث التأكيد على أن السفور ظاهرة اجتماعية وافدة علينا من الغرب، و هي في عمومها تعكس المجتمعات الغربية المتحررة من القواعد الشرعية و الأحكام الدينية، و أن الحجاب هو أصل من أصول الشريعة الإسلامية و من ثمة لا اجتهاد فيه ،فإن هذا لم يمنع من ظهور بعض الأصوات النشاز في المجتمع الجزائري من الذين دعوا إلى السفور، فقد رأى الشيخ أبو يعلى الزواوي أن المرأة المسلمة يكفيها الالتزام بالعفة و الأخلاق المستقيمة " لا حجاب غير الخلق الحسن و العقيدة الإسلامية الصحيحة و الشرف و الفضيلة و الرفعة و النزاهة [305] .

و يبدو أن الشيخ أبا يعلى الزواوي لا يعتقد الترويج للسفور بقدر التأكيد على التربية الإسلامية القويمة للمرأة حتى تبقى محترمة و بعيدة عن الرذيلة [306]

أما الشاعر محمد الصالح خبشاش فقد روعته الوضعية المزرية التي آلت إليها أوضاع المرأة الجزائرية، فأشفق عليها و على حالها و لكنها ليست بنظرة جزائرية بل بتأثير دعاة تحرر المرأة فعوض أن يركز في قصيدته على تربيتها و تعليمها و يلوم الاستعمار على تسببه في جهلها و أميتها ،راح يدعو إلى سفورها ونزع الحجاب عنها متناسيا أن الحجاب الذي ينبغي أن يدعو لنزعه هو حجاب الجهل والأمية والخرافة.

تركوك بين عباءة و شقاء مكؤوبة في الليلة الليلاء

مسجونة مزجورة محرومة محفوظة بملاءة سوداء

[305]- محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ج 1 ،ص 249.

[306]- المرجع السابق، ص 249.

فإلى متى هذا الحجاب؟ إلى متى؟ إلى التلاشي؟ أم ليوم لقاء؟

أترابكن من الفرنج غدون في فرط العلا في عزة قعساء [307]

أما الأستاذ الشيخ العمودي فقد اعتبر الاقتصار على جانب الحجاب و السفور فيما يتعلق بالمرأة لا يعكس حقيقة ما ينبغي أن نطلع به من عناية بشؤون المرأة من جميع الجوانب و يبدو عنده أن قضية هندام المرأة المسلمة قضية مفصول فيها شرعا و لذلك نجده يؤكد على وجوب التمسك بالحجاب" ورغم كوني من القائلين بوجوب توفية المرأة جميع حقوقها بسائر صنوفها، فإنني أبغض السفور و أستحسن الحجاب لأنه عنوان الصيانة و العفاف، ولأنه أكبر معين على تطبيق قاعدة توزيع الوظائف الاجتماعية [308]

و إذا كانت دعوة العلماء و المصلحين للمرأة الجزائرية بضرورة الحفاظ على لباسها الشرعي الذي هو "الحجاب" فإن ذلك يعد صيانة لها من موضة "السفور" الغربية التي تريد أن تجهز على عفة أخلاقها، فإن دعوتهم إلى تربيتها و تعليمها وحل مشاكلها الاجتماعية يعد ثورة اجتماعية تستهدف النهوض بها لكي تقدر على أداء وظيفتها في المجتمع على أحسن وجه .

[307]- محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر، جزء 2، ص 94.

[308]- محمد ناصر، المقالة الصحفية ،ج 1، ص 255 نقلا عن جريدة الإصلاح ع 11(23/ 1/ 1930).

المحاضرة التاسعة عشرة: تعليم المرأة الجزائرية

نظر العلماء المصلحون إلى تربية المرأة الجزائرية و تعليمها أمور دينها و دنياها على انه يشكل ركن من الأركان التي يقوم عليها مشروعهم الإصلاحي و النهضوي [309] بحيث تصير المرأة المتعلمة واعية بالدور الذي تقوم به في مجتمعها للدفع بها قدما إلى الأمام على درب التطور و الرقي والازدهار أما بقاءها جاهلة أمية فان هذا الوضع يجعلها غير قادرة ليس فقط على المساهمة في بناء و الازدهار أما بقاءها جاهلة أمية فان هذا الوضع يجعلها غير قادرة ليس فقط على المساهمة في بناء المجتمع بل حتى على إعداد الناشئة وفق ما تقتضيه قواعد التربية الحديثة.

و انطلاقا من هذه القناعة فقد ذهب الكتاب بجريدة المنتقد إلى التأكيد على وجوب صقل فكر الفتاة المسلمة و تربيتها وتعليمها حتى تكون مع المدرسة خير من يعول عليهما أكثر للاضطلاع برسالة التربية في المجتمع "للتربية موضوعان حجر الأم في بيتها و غرفة المعلم في مدرسته، و لكن العمدة على الأول اكثر من الثاني، لذلك يتعين على الأم المربية أن تكون عالمة بما لا بد منه من أصول التربية الكاملة [310]

كما أن العناية بشؤون البيت و تنظيفه و تربية الناشئة تربية صالحة و صحيحة يقتضي نيل المرأة لقسط من المعارف التي تؤهلها للاضطلاع بهذه المهمة الشاقة و النبيلة، و في هذا الصدد نجد الأستاذ الأمين العمودي حتى وان لم يكن من دعاة تعليم المرأة تعليما عاليا إلا أنه كان من المؤمنين بتربيتها و تعليمها المقدار الذي يسمح لها بأن تكون ناجحة ومواطنة صالحة مع صيانة أخلاقها " أنا لا يروقني أن أرى الفتاة المسلمة من حاملات الباكالوريا

---

[309]- عبد الكريم أبو الصفصاف ، موقف العلماء المسلمين الجزائريين من تعليم المرأة الجزائرية إبان الربع الثاني من القرن العشرين ، مجلة سير تا ،جامعة قسنطينة ،عدد 1 ماي 1979 ص 57 وما بعدها.

[310]- جريدة المنتقد ،عدد 8(20 أوت-1925) .

أو من أعلام الدكاترة، بل حسبي أن أجدها تعرف الضروري من تعليم دينها و تتقن كيفية الانتفاع بحقوقها كما تتقن أداء واجباتها بكافة أنواعها، وتعلم مع ذلك ما هي الشروط اللازم توفرها في البنت البارة و الزوجة الصالحة و الأم المثلى فتعلمها حينئذ يجب أن يكون عربيا إسلاميا قبل كل شيء .

على أنني لا أحكم بمنع إرسال بناتها إلى المكاتب الفرنسية قبل تجاوزهن السن الذي يجوز فيه ذلك ومع الاحتياط التام والتحفظ الحقيقي بما يلائم عوائدنا وأخلاقنا الخاصة بنا "[311]

أما الأستاذ الشيخ ابن باديس فقد ركز في هذه المسألة على معالجة الجوانب الأساسية في شخصية المرأة الجزائرية من ضرورة تفقيه وتكوين و إعداد حتى تقدر على رسالتها في الحياة على أحسن وجه بداية من قدرتها على القيام بشؤون بيتها و العناية بأمور أطفالها " خلقت لحفظ النسل، وتربية الإنسان في أضعف أطوراه ، فهي ربة البيت وراعيته و المضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به، فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها ، وتربيتها على الأخلاق السوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة ، فالتي تعد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها "[312].

وزاد عن هذا بالدعوة إلى ضرورة تكوين شخصية المرأة في بعدها الديني الوطني والقومي حتى نضمن ناشئة جزائرية متشبثة بوطنها وأصالتها " فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها طريق الدين الذي مالها وما عليها تفقهها في دينها ولغتها وقوميتها، فعلينا أن نعرفها حقائق ذلك لتلد أولادا منا ولنا يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية و لا

[311]- محمد الأخضر عبد القادر السائحي، محمد الأمين العمودي،ا لمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري 1988 ص 91 نقلا عن جريدة الاصلاح عدد 8/ 28/ 90 ،1926 بعنوان المرأة المسلمة الجزائرية .

[312]- وزارة الشؤون الدينية، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس الجزء 5، ط(1) ،دار البعث قسنطينة 1991، ص 441.

ينكرون أصلهم و إن أنكرهم العالم بأسره ولا يتنكرون لأمتهم و لو تنكر لهم الناس أجمعون [313].

وحتى يكون لطرح الشيخ ابن باديس صدى ومصداقية عند الجزائريين، عاد بهم إلى أيام الإسلام الزاهية فقد لجأ لدراسة نساء السلف للمساعدة في حل مشاكل تطور المرأة إذ رأى أنه من المفيد الرجوع إلى تراجمهن، ففي قصة الشفاء بنت عبد الله وهي من المهاجرات من مكة و التي كانت تعرف الكتابة و التي استعملها عمر بن الخطاب في بعض المهام في الدولة، يقدم ابن باديس شخصية قوية اعتبرها نموذجا فاضلا للمرأة المسلمة حيث سابقتها في الإسلام معرفتها الكتابة، و قدرتها على ممارسة الأعمال العامة.

ويريد ابن باديس بذلك تذكير المعاصرين بنماذج من الماضي، حافزا عن كل التطورات التي تحصل منذ ثلاثة عشر قرنا، وربما يقف ضد التطور كمبدأ فيما يخص المرأة و بالنسبة إليه فإن الدور الذي ستلعبه المرأة المسلمة هو دور " الشفاء الذي نقها به عمر بن الخطاب نتيجة لتمتعها بقدرات مهنية و عقلية، هذه القدرات المفترض وجودها لتحل قضية المرأة[314].

إن تركيز الشيخ ابن باديس على المرأة الأصيلة نابع أساسا عن قناعة كان يعيش تجربتها واقعيا بفعل تأثير الثقافة الغربية في أولئك الذين أداروا ظهرهم لتاريخهم، و من ثمة يصير خطر ذلك على البناء الاجتماعي أكثر من خطر الجهل " العالمة التي تلد أبناء لا يعرفونها يعرفونها مثل أمهاتنا (عليهنّ الرحمة) خير من يوم تسلك هذا الطريق في تعليم المرأة، قد نهضنا بها نهضة صحيحة ترجو من ورائها كل خير وكمال[315].

---

[313]-- المرجع نفسه.

[314]- سعد فهمي، حركة ابن باديس ودورها في يقظة الجزائر، دار الرحاب، بيروت، ط1، 1983، ص 93

[315]- الأستاذ محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار العودة الثقافية، بيروت ،1973، ص 138.

واستنادا إلى شواهد من سيرة السلف الصالح وتاريخه دعا الشيخ ابن باديس إلى تعليم المرأة بقوله:" علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبناءنا وبناتنا في رجالنا وشبابنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا، و التي كانت لنا بين الأمم[316]

و إذا كان الأصل في تربية النشء هو البيت فقد أكد الشيخ ابن باديس على دور الأم فيه على اعتبار البيت هو المدرسة الأولى للناشئة " إنّ البيت هو المدرسة الأولى و المصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين و الخلق ،و الضعف الذي نجده في ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات و قلة تدينهنّ "[317]

ورأى الأستاذ الشيخ مبارك الميلي أن النهضة الجزائرية لن يكتب لها النجاح إذا كانت أبواب التعليم مفتوحة في وجه الفتيان و موصدة في وجه الفتيات حيث نبّه إلى ضرورة تدارك ذلك ضاما صوته إلى أصوات الفريق الذي أيد تعليمها بناءا على الاعتبارات التالية:

- إن فساد القلوب و انحطاط العقول كان شاملين للأمّة من ذكورها وإناثها فيجب أن يكون إصلاح القلوب و ترقية العقول عامين الذكور والإناث.

- إنّ المرأة شقيقة الرجل في الإنسانية فلتكن شريكته في التربية و التهذيب و لا تظلم بحرمان حقها من ذلك.

- إنّ الأم هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأبناء معلوماتهم الأولية.

---

[316]- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 173، نقلا عن الشهاب، ج 3 م 15، أفريل 1335 هـ.

[317]- مصطفى عشوي، المدرسة الجزائرية إلى أين؟ دار الأمّة ،الجزائر ، ص 25-26.

- إنّ الأنثى مكلفة في حكم الإسلام بمثل ما يكلف به الرجل لا يفترقان إلا فيما يرجع إلى القوة والسيادة فيختص الرجل بالإمامة و الولاية ومناصب الحكم فيما يعود إلى الضعف و الحنان فيختص بالأنثى كالحضانة و تنزل إثنتين منزلة واحد في الشهادة.

- إنّ الأنثى شريكة الرجل في منزله و قرينته في حياته لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فلا بد من تشاركهما في التهذيب و تقاربهما في التثقيف ليرغب الفتى في الفتاة و تعرف الفتاة كيف تعاشر الفتى ليكونا وهما زوجان أقرب إلى الوفاق و أبعد من الشقاق[318].

و كان الشيخ الميلي من الذين يرون بضرورة التفكير في طريقة الجمع بين تعليمها و المحافظة على أنوثتها وعدم ترجلها في الوقت الذي نصح فيه بضرورة تعليم أبنائهم و بناتهم العلم النافع [319]

و الحق أنه منذ تأسست جمعية العلماء كانت تهدف الى تعليم أكبر عدد من الفتيات و توعيتهن، فقد جعلت تعليمهن مجانا، و هو ما جاء على لسان رئيسها الشيخ ابن باديس الذي كتب في الشهاب يقول:" فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون ، و أما البنات فيتعلمن كلهن مجانا، لتكون منهن بإذن الله المرأة المسلمة المتعلمة[320].

كما نوقشت قضية المرأة في مؤتمر طلبة إفريقيا سنة 1932 م الذي عقد بالجزائر جاء فيه ما يعبر أنّه أول لفتة جادة لمشكلة المرأة في المغرب العربي:

1- وجوب تعليم المرأة.

2- غاية تعليم المرأة هو تثقيف فكرها وتربية أولادها والقيام بشؤون المنزل ثم اتخاذ حرفة تستعملها عند الحاجة

---

[318]- مبارك الميلي، تعليم المرأة الكتابة ،مجلة الشهاب ج6 م 12.

[319]- المرجع نفسه.

[320]- مصطفى عشوي، المدرسة الجزائرية، مرجع سابق، ص 25.

3- المطلوب من شعب الشمال الإفريقي المتمثل في هذا المؤتمر أن يسعى في تأسيس مدارس حرة تتعلم فيها البنات المسلمات اللغة العربية [321].

أما بالنسبة لليلى بن ذياب فإن بناء الأسرة المتماسكة مرهون بتعليم المرأة وتثقيفها لأنها هي التي تمثل المدرسة الأولى في المجتمع" المرأة هي قوام المنزل وربة الدار وأم الأشبال ودعامة الأسرة وهي القدوة الحسنة لأبنائها إذا صلحت والسيئة إذا طلحت، وهي المسؤولة على إسعاد أطفالها ومراعاة ثقافتهم وصحتهم، ولذلك فإن من واجبها علينا أن نعطيها حقها من الحرية وأن ندع لها الفرصة لأخذ قسطها من التعليم ونيل نصيبها من الثقافة السامية والآداب الرفيعة فنخرجها من ظلمات الجهل و نفكها من قيوده"[322].

و تلتقي دعوة النهضويين الجزائريين هذه ،القائمة على الدعوة إلى تربية و تعليم المرأة على قدم المساواة مع الرجل مع دعوة رواد النهضة العربية الإسلامية كالشيخ عبد الرحمن الكواكبي الذي نظر إلى التعليم " على أنه قاصر إذا تناول الرجال و أهمل النساء لأن المرأة هي التي تربي الرجل الأمر الذي يعني أن تعليمها سينعكس على الرجل، لا سيّما وأن الحياة تتطلب مشاركة المرأة و الرجل ومخالفة ذلك تكون مسؤولية آدم و حواء إلى هذه النسبة المتباعدة، هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي" [323] .

و إذا كانت الدعوة إلى تربيتها و تعليمها يمكن أن نرجع أصولها إلى مطلع القرن العشرين،فإن نضج هذه الدعوة وتجسيدها في الميدان لم يكتب لها النجاح إلا مع تأسيس المدارس العربية الحرة حيث فتحت المجال واسعا أمام الفتيات لكي ينهلن من العلوم

---

[321]- صالح خرفي، الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 172.

[322]- ليلى بن ذياب ،تعليم المرأة ،جريدة البصائر ،عدد 93، 1949.

[323]- على نوح الكواكبي: صوت النهضة العصروي في خطاب النهضة ،مجلة المستقبل العربي عدد 196 (جوان 1995) ص 106.

والمعارف حتى يقدرن على القيام بواجباتهن الاجتماعية و الوطنية على أحسن وجه جنبا لجنب مع الرجال.

المحاضرة العشرون: معالجة مشاكل المرأة الاجتماعية:

وفي سياق معالجة قضية المرأة الجزائرية لم يغفل المصلحون والنهضويون أن يتناولوا مسائل جديدة طرأت على الحياة الاجتماعية لم يعشها المجتمع الجزائري من قبل كقضية تحديد النسل التي اعتبرتها جريدة البصائر بأنها مفتعلة وأنها ليست حلا لمشكلات المجتمع الحديث .[324]

كما رد الشيخ أبو يعلى الزواوي على أولئك الذين يطعنون في تعدد الزوجات في الإسلام وهو في معرض رده على سيناتور وهران الذي اعتبر تعدد الزوجات في الإسلام نسبة للجزائريين لا يستحقون الحقوق الفرنسية من أجل ذلك ،و استحسن أن تكون مثل الترك هذا ما وقفنا له على مقالات ذكرتها الجرائد، وقد استشهد بأقوال الإمام رشيد رضا في رده على هذا القاذف في الإسلام و ذهب الشيخ أبو يعلى الزواوي إلى أن الحكمة في تعدد الزوجات يعد مفتاحا لحل بعض المشكلات الاجتماعية في البلاد ،فمثلا إذا كان في بلدنا عشرة آلاف غني يقدر على الزواج و القيام بأربع نساء لا ينح إيواء بل أنقذ أربعين امرأة؟ بلى! و أما ما يقال من الخلاف و النزاع في البيت فهو كسائر الخلافات و النزاعات في جميع الشؤون الاجتماعية الاشتراكية التي لها قوانين يلجأ إليها عند اللزوم و هذا مما لا تخلو منه أسرة ولا جماعة ولا أمّة ولا دولة " [325].

و لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن التعدد في الإسلام و القرآن مقيد بعدم الجور و الظلم[326]

---

[324]- تحديد النسل ليس حلا للمشكلة، جريدة البصائر عدد 5 ، (30/ 11/ 1955).

[325]- الشيخ أبو يعلى الزواوي، تعدد الزوجات في الإسلام ،جريدة البصائر، عدد 136،(21/ 10/ 1938).

[326]- المنجي الشملي ، قضية المرأة في تفسير المنار، حوليات الجامعة التونسية ص13.

أما الشيخ باعزيز بن عمر فقد كرس قلمه لتناول مجمل القضايا الاجتماعية في وقته ومنها قضية الضمان الاجتماعي في الجزائر و حرمان المرأة الماكثة في البيت من المنحة[327] و قضية عمل المرأة خارج البيت، و حرمان الفتاة من دخول المدارس الأمر الذي جعل الشبان المتعلمين من مناطقهم يستنكفون من الزواج منهن الأمر الذي أدى إلى استفحال ظاهرة العنوسة .

كما نظر الشيخ باعزيز إلى أنه لا ينبغي فسح المجال للمرأة كي تخرج من البيت للعمل في المصانع والورشات قبل تحصينها بالعلم الذي يجنبها السقوط في مهاوي الرذيلة" يجب التفكير في استخدام المرأة في المعامل و المصانع وهي لم تتحصن بعد بالعلم [328] الذي يجنبها شرور المجتمع و يبعدها عن الرذيلة و خاصة إذا خلت البلاد من هذه المعامل أو كانت و لكنها لم تسع العاملين، فكيف تسع العاملات ، و إن كل دعوة للمرأة إلى الظهور بهذا الميدان في مثل مجتمعنا سابقة لأوانها ، فليمسك منها أصحابها إلى حين، و إذا كان لابد من التفكير في الموضوع فليكن في إيجاد العمل للرجل قبل المرأة [329].

وحمل مسؤولية انحراف الأطفال عن الجادة و جنوحهم لارتكاب الجرائم في المجتمع إلى الأولياء ،فالأب و الأم اللذان لم يربيا الأطفال على الاستقامة حيث يترتب على ذلك عدم القدرة على ضبطهم كتعويدهم على الدلال المفرط الأمر الذي يؤدي به إلى التمارض حتى لا يذهب إلى المدرسة و يرفض بعض الأطعمة المفيدة لصحته بل و يتعدى الأمر إلى السرقة لا لأنهم محتاجون و لكن لتلبية رغبات شهواتهم التي لم يتعودوا على كبحها.

---

[327]- باعزيز بن عمر ، الضمان الاجتماعي في الجزائر ، ، جريدة البصائر، عدد 311 ،(25/ 3/ 1955).

[328]- باعزيز بن عمر، المرأة و العمل خارج البيت ، جريدة البصائر، عدد 296 (10/ 12/ 1954)

[329]- يظهر أن العلم الذي قصده الأستاذ باعزيز بن عمر هو علم الدين الذي يخلق في صاحبه ذلك الوازع الديني الذي يجعله يستشعر عظمة الخالق سبحانه و تعالى فلا يفكر في ارتكاب الجرائم.

إضافة إلى تعاطي الآباء للخمور الأمر الذي يؤدي إلى الإهمال العائلي و من ثمة انحراف الأولاد الذين يجدون أنفسهم بلا عناية مادية وأخلاقية، فينغمسون في الآفات تكون لها انعكاسات سلبية وبابا للشقاق و الطلاق على الأبناء الذين يجدون أنفسهم محرومون من عاطفة الأولياء: " وما أشقى الطفل الذي يضطره فراق الأبوين إلى الحياة مع أحدهما دون الآخر فينشأ محروما من عطف أحد الجانبين عليه، فاقدا لتلك الحماية المزدوجة التي لا غنى لطفل عنها، و هو مستقبل حياة اجتماعية معقدة لا هادي لها في مسالكها المتشعبة إلا نور حب أبويه و حرصهما معا على إيصال الخير إليه وحمايته من كل مكروه، وهو إذا فقده الطفل كان له أثره السلبي لافي تكوينه الشخصي و سلوكه الاجتماعي فحسب ، بل في حبه لواقعه و علاقته بمواطنيه ،فينشأ عصبي المزاج متشائما بالحياة متبرما لا يفكر إلا في إشباع شهواته و الانقياد لأهوائه ،يسيء الظن بالناس جميعا لأنه لم ير من سيرة أبويه ما يجعله يثق بهم ،و يسيء الظن بالدين لأنه لم يشهد حوله في البيت و هو صغير إلا ما لا يمت إلى الدين بصلة ويمضي على هذه الوتيرة في احتقار كل شيء ، والزراية بما تحترمه الأوضاع و التقاليد إلى أن يسقط في أحضان الإلحاد سقوطا يقوده إلى البوار والخسران في الدنيا و الآخرة ولعذاب الأخرة أكبر، و لكن إذا كان الأولياء مسؤولين عن هذا كله فما هي مسؤولية المجتمع اتجاه ذلك أيضا؟[330].

و هو بذلك يريد أن يجعل نصيبا من المسؤولية أيضا يقع على عاتق المجتمع الذي له دور في حماية أبنائه من الآفات ومساعدتهم على تجاوز الأزمات.

كما عالج الأستاذ باعزيز أيضا مسألة مغادرة بيت الزوجية و آثارها السيئة على المجتمع في تلك الحقبة الاستعمارية حيث كان الرجل يغيب عن أسرته أحيانا فترة ليست بقصيرة وربما زاد على ذلك فتزوج من امرأة أخرى في المهجر وما يتبع ذلك من مشاكل، و

[330]-. باعزيز بن عمر، المرأة و العمل خارج البيت، مرجع سابق.

هجران كذلك الزوج لبيته من فرط إسراف الزوجة في النفقات و نفاذ صبره على ذلك و أنظر آثار ما يترتب على ذلك [331]

ولا يجد الأستاذ باعزيز من حلول لمثل هذه المشاكل الاجتماعية العويصة إلا تقوية الوازع الديني في النفوس و طبع الجيل الجديد بطابع الإسلام الصحيح و السعي كذلك في رفع مستوى الأسرة اجتماعيا واقتصاديا [332]

كما نظر الشيخ أبو يعلى الزواوي إلى مسألة ميراث الإناث [333] في بلاد القبائل على أنه مخالف لقواعد الشريعة الإسلامية ولا يعدو أن يكون تطاولا على حقوق المرأة وهضم لحق من حقوقها أقره الشرع الإسلامي[334].

كما لفتت ظاهرة إجبار الفتاة من قبل أوليائها كي تتزوج بمن لا ترغب فيه ،فنجد الأستاذ أحمد بن عاشور يعالج مسألة الزواج والاختيار من خلال أقصوصته الأخرى تنال بعض الاهتمام من الكتاب المصلحين الذين رأوا في ذلك إجحاف في حق الفتاة ،فقد عالج عانسا تشكو أبا يبحث عن خاطب غني وفتاة تحلم بفارس يدخل قلبها و أم تشفق على ابنتها ليلى فتبحث لها عن زوج تكون أمّه طيبة حتى لا تؤذيها فينتهي الأمر إلى تطليق ابنتها "ليلى"[335].

و من المشاكل التي عالجها المصلحون ظاهرة التبرج و الخلاعة و الخروج عن مألوف الآداب العامة حيث استنكفوا من ذلك و اعتبروه منافيا للقيم الإسلامية كمظاهر العري

---

[331]- باعزيز بن عمر ، مغادرة البيت الزوجية، جريدة البصائر ،عدد 336 ،(7/ 10/ 1955).

[332]- المرجع نفسه.

[333]- عن حرمان المرأة في منطقة القبائل من الميراث، أرجع إلى الشيخ السعيد بن زكري، أوضح الدلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، ص86/87.

[334]- أبو يعلى الزواوي، قضية ميراث الإناث عند قوم الزواوة ، جريدة البصائر عدد 67، (فيفري 1949) .

[335]- عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 178.

في الأماكن العامة و في مكاتب العمل وما إلى ذلك من الظواهر التي رأوا فيها بابا تدخل منه الآفات و من ثم تفكك أوصاله و تقضي على عنصر الحياة و التماسك فيه ،يقول الشيخ أبو يعلى الزواوي في هذا الصدد "تجرد النساء من الحشمة ، و اختلاطهن بالرجال في المقاهي و التجمعات و الحمامات الصيفية تلك البدعة بل الوقاحة المدهشة ألا وهي اختلاط الرجال و النساء متجردين من اللباس في الاستحمام بشطوط البحار وكذلك في المكاتب والإدارات "[336].

وعاب الشيخ عبد المجيد الشافعي على بعض الأولياء إفراطهم في تقييد حرية بناتهم إلى حد منعهم من الاختلاط إلى المدارس والاكتراع من ينابيع العلم والمعرفة، الأمر الذي يجعلهن طيلة حياتهن جاهلات أميات بقواعد الدين وأسرار الحياة ،يحدث سوء التفاهم بين الأزواج ،ويحدث الطلاق وضياع الأولاد ،كما يعزف الشباب المثقف على التزوج منهن فيفضي ذلك إلى أزمة اجتماعية.

وإني أصارح قرائي المحترمين بأن الأمّة الجزائرية قادمة وبوضعها الراهن على مشكلة خطيرة جدا ذلك يوم يصبح الزوج مثقفا والزوجة جاهلة، وتسوء المفاهمة بين الجانبين، ويتكدر صفو المعاشرة، ويذهب الأولاد ضحية هذا الشؤم العظيم، وإنّ أخوف ما أخاف منه أن يأتي يوم يترفع فيه المثقف عن التزوج بالجاهلة وتعم العزوبة وتلك الطامة الكبرى[337].

ويدعو الأستاذ الشافعي الأولياء إلى وجوب تجاوز التقاليد البالية حتى تتجاوز التخلف والانحطاط فيقول "أيها الآباء إنكم بهذا مسؤولون عن أركان المجتمع، لا قدر الله، إذا أنتم تماديتم على هذا التحفظ الفاسد واستسلمتم للتقاليد الخاطئة التي تمنعكم من التقدم وتبيح

---

[336]- المرجع نفسه.

[337]- عبد المجيد الشافعي، التقاليد وثقافة المرأة الجزائرية، جريدة البصائر عدد 29، (1374 هـ-1954 م).

لكم التأخر ،وإني أدعوكم أيها الآباء لتحطموا ذلك السياج الحديدي الذي حال دون تقدمكم وترككم في هاوية الضلالة، وأود أن تمدوا أيادي المساعدة لجمعية العلماء وتتعاونوا معها على تكوين جيل جديد من بنات وبنين تسير مع الأمم الحية في المستقبل القريب [338]

و نظر الأستاذ باعزيز إلى مناسبة " عيد الأمهات" على أنها عديمة المعنى بالنسبة للمجتمع الجزائري الذي آل وضعه إلى الفاقة و البؤس و أن هذا العيد" عيد الأمهات" لا يهم إلا الجاليات الأوربية القادرين على القيام بها، أما الأمهات الجزائريات فبعيدين كل البعد عن كل هذا بعد أن صرن يتسولنّ من أجل أبنائهن" إننا نسجل بمزيد الأسف أن الكثرة الضخمة من أمهاتنا ، لا تتذوق معنى لعيد الأمومة أو بلغن صداه نظرا لضيق دخل الأسرة الذي يعكر صفو حياتها الروحية أو الأدبية من عدة وجوه أو للخطوب التي حلت بها فأفقدها عاهلها، و ألقت بالأم و أولادها صبيتها إلى العراء فأصبحت تحترف التسول و على ذراعها رضيعها الذي لم يبلغ الفطام ، و ما أكثر هذه المناظر المؤذية في شوارع العاصمة[339].

وعلى النقيض من ذلك نجد الميسورين يتفننون في الاحتفاء "حيث ترى غير بعيد عنها مظاهر الترف والنعيم في تجدد دائم وتطور شامل تجدد الفصول والأيام، و كيف تشعر أم هذه حالتها وهذا مكانها في المجتمع بمعنى من معاني عيد الأمومة؟ وكيف يشعر بنيها وهم حولها يبكون ويتضورون جوعا بأسبوع الطفولة الذي يقال إنّ الغاية منه هو إدخال السرور

[338]- المرجع نفسه.

[339]- باعزيز بن عمر، عيد الأمهات، جريدة البصائر، عدد 322 (10 جوان 1955/ 19 شوال 1374هـ).

على الطفولة البائسة والتنفيس عن كربها بما تجود به أكف ذوي الثراء والإحسان من التبرعات لحمايتها من الآفات الاجتماعية [340]

ويضيف مستطردا حديثه عن تلك الحياة الوحدانية التي تجد المرأة فيها نفسها بعد أن يهاجر زوجها إلى فرنسا بحثا عن العمل وتوفير القوت لعائلته" ثم كيف تشعر أم بالاحتفال بعيد الأمومة وقرينها قد تركها مكرها منذ سنوات وفارقها وصبيتها إلى حيث يجد ملتمسا للرزق والكسب علّه إذا سعف بالمطلوب أسرع فنفس عنها كربتها وأفاض عليها من دخله وأجره الذي قد لا يتسع لحاجته هو في بلاد الغربية [341]

و نظرا للأوضاع الاجتماعية الصعبة التي صارت تحياها المرأة الجزائرية و لا مبالاة السلطات الاستعمارية ،فقد ناشدت كاتبة رمزت إلى اسمها ب " باية" المثقفين الجزائريين من علماء و أدباء لكي يأخذوا بيدها و يسعوا إلى ترقية وضعيتها الاجتماعية و الثقافية حيث تقول " أيها العلماء، أيها الأدباء ، ألم يرق قلبكم لحال المرأة البدوية ألم تكن في قلوبكم رحمة فترحمها كما رحمتم بنت المدينة، فابنوا لها المدارس أعطوها حقها في هذه الحياة يا أهل العلم و الأدب و يا أهل الجاه و المال، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء أخرجوها من الظلمات و سيروا بها إلى نور العلم كبنت المدينة إنها تعيش كالبهائم على الأرض ، فأدبوها و سيروا بها إلى الطريق المستقيم طريق الجنة و النعيم .. علموا البنت إن تعليم البنت هو الذي يرفع عن الأمة الجهل والأمية ويصعد بها إلى أعلى عليين [342] .

وعلى العموم كانت عناية المثقفين النهضويين الجزائريين بقضايا المرأة الجزائرية قد ركزت على المسائل التالية:

---

[340]- ا لمرجع نفسه.

[341]- المرجع نفسه.

[342]- باية، البدوية والحياة، جريدة البصائر، عدد 296.

- إعادة الاعتبار للمرأة الجزائرية من خلال السعي لترقيتها ورفع مستواها الاجتماعي حتى تكون في مستوى الدور المنوط بها في المجتمع.

- التصدي للتيارات الغربية الرامية إلى تمسيخ المجتمع برمته، حيث نظر المصلحون الجزائريون إلى دعوة السفور على أنها دعوة آثمة على اعتبار أنها ظاهرة دخيلة على المجتمع الجزائري جاءت نتيجة احتكاك المرأة المسلمة بالمرأة الأوروبية و هي تعبير عن تقليد أعمى للحضارة الغربية .

-سعي النهضة الجزائرية إلى تربية المرأة وتعليمها أمور دينها ودنياها حتى يتسنى لها الإسهام في بناء مجتمعها وتطويره.

- العمل على معالجة مشاكل المرأة الجزائرية الاجتماعية الناتجة عن الوضع الاستعماري من جهة ومستحدثات الحياة العصرية من جهة أخرى، كتحديد النسل، والعمل خارج البيت، والبؤس الاجتماعي واقتراح الحلول من منظور الشريعة الإسلامية.

قائمة المراجع و المصادر

أولاً: قائمة الكتب باللغة العربية

1 -أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2، 1992.

1-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998

2- أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث ،دار المعارف، 1961م.

3- أحمد بن نعمان، كيف صارت الجزائر مسلمة عربية؟ ، دار الأمّة، الجزائر.

4-أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

5- أسعد السحمراني ، مالك بن نبي : مفكرا إصلاحيا ، دار النظائر ،بيروت.

6- ألبير ديفوكس، المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر، الجزائر، 1878.

7-أنور الجندي، الفكر والثقافة في شمال افريقيا، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، 1965.

9- أوكتاف ديبون واكسافييه كوبولاني ، الطرق الدينية الإسلامية، الجزائر، 1897.

10- برهان غليون ، اغتيال العقل ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر ، 1990.

11- الشيخ البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، جزء 2، ش.و.ن.ت، الجزائر.

12- بير منغان، مدخل إلى الجزائر، ***Initiation***، 1957.

13- جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق وإعداد محمد عمارة، المؤسسة المصرية العامة، د. ت.

14- الخميسي، التربية و تحديث الإنسان العربي، عالم الكتب، القاهرة، 1988.
15-رافع رفاعة الطهطاوي ، مناهج الألباب المصرية، ضمن الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان،ط1، 1974.
16-رشيد رضا ،تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبدو، ج 2 ، مطبعة المنارة، القاهرة، 1324هـ.

17- رضوان السيد ، سياسات الإسلام المعاصر ، مراجعات و متابعات.
18-آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزء الخامس، منشورات الشؤون الدينية ، دار البعث،قسنطينة 1991.

19- ابن باديس، عبدالحميد، حياته وآثاره، تحقيق وجمع عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي ، لبنان،ط1، 1983.
20-سالم الحداد ، صراع الهوية بين الأنا و الآخر، الأطلسية للنشر، ط1، 2000.
21- سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1976.

22-سعد فهمي، حركة ابن باديس ودورها في يقظة الجزائر، دار الرحاب، بيروت، ط1، 1983.
23-سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1983.
24- صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت.
25- عبد الباسط سيدا، الوضعية المنطقية و التراث العربي: نموذج فكر زكي نجيب محمود الفلسفي، تقديم طيب تيزيني، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1990.

26-عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

27- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ش و ن ت، الجزائر، 1983.

27-عبد الله شريط، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1986 م.

28-عمر كامل مسقاوي، حول فكر مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط (1) ،1405هـ/ 1985 م.

29-عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي، دار اقرأ، بيروت، ط1، بيروت، 1985.

30-عبد القادر فوضيل ومحمد الصالح رمضان ،إمام الجزائر عيد الحميد بن باديس . دار الأمّة الجزائر، ط (1) 1998.

31- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل، تحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت.

32- علال الفاسي ، النّقد الذّاتي ، المطبعة العالمية ،القاهرة، 1952 .

33- عبد القادر المغربي ، جمال الدين الأفغاني ، أحاديث و ذكريات ، القاهرة.

34- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، المجلد الأول، ط 2، بيروت،1961.

35-عمار أوزيقان، الجهاد الأفضل، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 1962.

36- عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ،دار الأمّة، الجزائر، 1999.

37- عبدالله ركيبي، عروبة الفكر والثقافة أوّلا، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1986.

38-عبد العزيز الساحلي، قضية التربية والتعليم من خلال فكر علماء الإصلاح، ط1، بيروت، 1995.

39-عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط1، 1981.

40-علي علواش، منهج الإصلاح عند الإمام عبد الحميد بن باديس بين السلفية و النهضة، أطروحة دكتورا دولة ، جامعة الجزائر،1999.

41- عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية(1945/1931)، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1981.

42-الشيخ الفضيل الورثلاني، الجزائر الثائرة ،دار الهدى ،عين مليلة الجزائر ،ط 3، د

43 - فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط2، بيروت، 1985.

44- فهمي جدعان ، الطريق إلى المتقبل ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1، 1996.

45- مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، ط5،

46- مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر بالجزائر ودمشق، ط1، 1412 هـ/1991م.

47- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ترجمة مروان قنواتي ، دار الفكر، دمشق، 1986.

48- محمد الصالح المراكشي، قراءات في الفكر العربي الحديث و المعاصر، الدار التونسية للنشر، 1992.

49- محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر، جزء 2.

50- محمد عابد الجابري : حوار المشرق و المغرب، دار طوبقال، الدارالبيضاء،ط1، 1990.

51- محمد الأخضر عبد القادر السائحي، محمد الأمين العمودي ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري، 1988

52- محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار العودة الثقافية، بيروت ،1973.

53- مهدي مبروك، هل نحن أمّة؟، دار البراق للنشر، تونس،1989 .

54- محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1972.

55- محمود قاسم، الإمام عبد الحميد ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف، مصر، ط2، 1979.

56- محمد نسيب، زوايا العلم و القرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، د.ت .

57- محمد الطاهر وعلي ، التعليم التبشيري في الجزائر، منشورات دحلب ،د.ت.

58- محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.

59- محمد ناصر، الشيخ أطفيش قفي: جهاده الإسلامي، مكتبة التراث، القرارة، الجزائر،1991.

60- محمد وقيدي و أحميده النيفر ، لماذا أخفقت النهضة العربية ؟ ،دار الفكر المعاصر ،بيروت، ط 1، 1422/ 2002.

61- مصطفى الأشرف : الجزائر الأمّة و المجتمع ، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1980.

62- مصطفى عشوي، المدرسة الجزائرية إلى أين؟ دار الأمّة ،الجزائر .

63- مصطفى صادق الرافعي ، من وحي القلم ، جزء 3 ،دارالمعارف، القاهرة،1972م.

64- هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب، دار النهار، لبنان ، 1971.

65- يحي بوعزيز ،الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب تونس

ثانيا: قائمة الكتب باللغة الأجنبية

1-Ali Merad, Le réformisme musulman en Algérie, édition El-Hikma, Alger, 1999.

2 - Aoudad, la naturalisation nous confère-t-elle le droit de cité ?, voix des humbles, aout 1929.

3- Desparmet, Naissance d'une histoire nationale de l'Algérie, A.F.Juillet 1933.

4- Ferhat Abbas, La France c'est moi, L'entente, 23 FEVRIER 1936.

5-Louis Rinne, Marabouts et khouan, étude sur l'Islam en Algérie, Alger, 1884.

6- Mohiédine Djender, Introduction à l'histoire d'Algérie, SNED, -1 Oran, 1968.

7- R. Zenati, Devant les Réalités, voix Indigène 26 mars 1938.

8- R.Zenati, le problème Algérien vu par un indigène, supplément l'A, F, mai 1938.

9- Sadek Sellam Hamouda Bensai, Islam de France, 1999.
10-Saad Eddine Bencheneb, quelques historiens arabes modernes de l'Algérie, revue africaine n°91(1956).

ثالثا: المجلات و الصحف.

1-أحمد بن الغزالي ،جواب عصري طبيعي، جريدة كوكب إفريقيا ،عدد 219، (14-7-1911).

2- أحمد توفيق المدني، بين الموت والحياة، جريدة الإصلاح عدد 27 /2/ 1930 م.

3- أحمد بن ذياب ،الأسرة في الشريعة ، جريدة البصائر عدد 75 ،(1949/4/11).

4- أحمد مريوش : دراسة النزعة العقلانية والوطنية في منظومة ابن باديس الإصلاحية ،مجلة المصادر ،عدد 7 / 1990 .

5- أحمد مريوش، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية الجزائرية ، مجلة الرؤية ، الجزائر، العدد 2 (ماي ، جوان 1996 م).

6- أحمد بن أبي زيد الأغواطي، التعليم عندنا وحاجته إلى توحيد ونظام ، مجلة الشهاب ،ج 1،عدد13 (14 مارس 1937).

7- الشيخ أبو اليقظان ، نحن إلى التربية أحوج ، جريدة وادي ميزاب ،عدد 2 (18 أكتوبر 1926).

8- الشيخ أبو اليقظان، همسة في أذن ناقد النديم ، جريدة وادي ميزاب ،عدد 67،(271-1928) .

9- الشيخ أبو اليقظان ، رأينا في التجنيس ، جريدة وادي ميزاب عدد 70 (17 - 2 - 1928 م).

10-إسماعيل العربي ،مناهج التربية القومية ،جريدة البصائر ،عدد 93 (أكتوبر 1949) .

11-إسماعيل الزكري ، هل من فضل اللغة العربية بالجزائر ؟ ،جريدة البصائر ، عدد 98 (05/ 12/ 1949).

12-الشيخ أبو العباس أحمد بن الهاشمي، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا مثالكم ، جريدة البصائر،عدد32 ،أوت 1936 م .

13- الشيخ أبو اليقظان، أردنا نصيحة فأراد فضيحة، جريدة وادي ميزاب ع (2/ 3/ 1928).

14-أبو يعلى الزواوي، تعدد الزوجات في الإسلام ،جريدة البصائر، عدد 136،(21/ 10/ 1938).

15-أبو يعلى الزواوي، قضية ميراث الإناث عند قوم الزواوة ، جريدة البصائر عدد 67، (فيفري 1949) .

16- باعزيز بن عمر ، الضمان الاجتماعي في الجزائر ، ، جريدة البصائر، عدد 311 ،(25/ 3/ 1955).

17- باعزيز بن عمر، المرأة و العمل خارج البيت ، جريدة البصائر، عدد 296 (10/ 12/ 1954).

18- باعزيز بن عمر ، مغادرة البيت الزوجية، جريدة البصائر ،عدد 336 ،(7/ 10/ 1955).

19باعزيز بن عمر، عيد الأمهات ،جريدة البصائر ،عدد 322 (10 جوان 1955/ 19 شوال 1374هـ).

20- باية، البدوية و الحياة ،جريدة البصائر ،عدد 296.

21- تركى رابح ، الشيخ الإبراهيمي في ذكراه العشرين ،مجلة الدوحة، قطر ،أوت 1985.

22- جورج قرم ،نحو استقامة حضارية جديدة، مجلة دراسات عربية ،السنة 16، عدد3 (1980)

23- الشيخ حمزة بوكوشة، قيمة المرأة في المجتمع ، جريدة البصائر، عدد 8 ،(21فيفري 1936).

24-الشيخ الرزقي الشرقاوي ،أسباب الرقي ، جريدة الصديق عدد 39 (1921).

25-الشيخ رمضان حمود، دعاة التجديد ،جريدة وادي ميزاب ،عدد 113 ،(21-12-1928) .

26- ساجد أحميد عبل ، الشيخ عبد الحميد بن باديس والوعي القومي العربي ، مجلة المستقبل العربي عدد 254، أفريل 2000.

27- شريف الدشوني ، بعض قضايا التنمية و التراث في الوطن العربي ، مجلة المستقبل العربي ، عدد 198 (8- 1995).

28- صالح خرفي، الحركة الإصلاحية والانحراف الديني، مجلة الثقافة، عدد 7،1972.

29-صلاح الدين أبو صالح، المرأة العربية ودورها في التنمية، مجلة دراسات عربية، العدد2، السنة السابعة والعشرون ديسمبر 1990.

30- الشيخ الطيب العقبي ، مطالب الأمّة الجزائرية، جريدة البصائر ، عدد 30،جويليه 1936 م .

31-الشيخ الطيبب العقبي، الإسلام و التمدن العصري، جريدة السنّة، العدد 1، 1351 هـ.

33-الشيخ الطيب العقبي ، جريدة الإصلاح ،عدد 52 السنة العشرون 12 جوان 1947.

34-الشيخ عبد الرحمن شيبان، الغزو الثقافي بين الحصانة الذاتية و البناء الحضاري، مجلة الثقافة، عدد 89 ،(1985م).

35- الشيخ عبد الحميد بن باديس ، أقر الخصم وارتفع النزاع ،مجلة الشهاب ،ج9 ،م 6، ص 574 (أكتوبر 1930 م).

36- عبدالحميد بن باديس، ما جمعته يدا لله لا تفرقه يد الشيطان، البصائر، عدد3 جانفي1936 .

37-عبد الكريم أبو الصفصاف ، موقف العلماء المسلمين الجزائريين من تعليم المرأة الجزائرية إبان الربع الثاني من القرن العشرين ، مجلة سيرتا ،جامعة قسنطينة ،عدد 1 ماي 1979.

38- عبد المجيد بن عدّة، أهدافنا من التربية والتعليم ، جريدة المنار سنة أولى ، عدد 13 ، جمعة 6 ربيع الثاني 1371 هـ / 4 جانفي 1952 م) .

39- عبد المجيد الشافعي، التقاليد و ثقافة المرأة الجزائرية، جريدة البصائر عدد 29، (1374 هـ-1954 م).-

40-على القريشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، مجلة الأمّة، عدد 69، رمضان 1406 ه/ مايو 1986، الدوحة.

41- علي محمد بو شقرون، بشائر النهضة الجزائرية الأمم برجالها، رواق المغاربة، الأزهر الشريف، جريدة صدى الصحراء، عدد 9(1/ 2/ 1926).

42- علي نوح، الكواكبي: صوت النهضة العصروي في خطاب النهضة ،مجلة المستقبل العربي عدد 196 (جوان 1995).

43-علي بن حالة ، تهذيب الأحداث وإصلاح المستقبل ، جريدة المنار عدد (27 رجب 1370 ه- 4 ماي 1951 م).

44- عمر بن قدور الجزائري، جهل المرأة المسلمة، جريدة الفاروق ،عدد 38 ، (23/ 11/ 1913).

45- علي مرحوم، بناتنا في المكاتب الفرنسية ،جريدة البصائر ،عدد80، ماي 1949.

46- ليلى بن ذياب ،تعليم المرأة ،جريدة البصائر ،عدد 93، 1949.

47- ليلى بن ذياب، اخترت لكم المرأة والمجتمع ،جريدة البصائر ،عدد 163 ، جويلية 1951.

48- محمد البشير الإبراهيمي، عروبية الشمال الإفريقي، جريدة البصائر عدد 150 (1951).

49- محمد الشيخ البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء،

50- محمد جميل منيمة، فجر النهضة العربية مرحلة الريادة الأولى: دراسة نقدية في فكر الطهطاوي ،مجلة الفكر العربي ،عدد 1985/39،40.

51- محمد كشاش، رؤية نهضوية لتطوير العربية : رشيد رضا نموذجا، مجلة المستقبل العربي، عدد 196 (1995/6 م).

52- محمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة ،ط (2) ،1975.
53- محمد جميل منجنيقة ، فجر النهضة العربية :مرحلة الريادة الأولى دراسة نقدية في فكر الطهطاوي ،مجلة الفكر العربي ،عدد (39 / 40).

55-الشيخ محمد بن بكير ، التربية سبب رقي الأمّة ، جريدة وادي ميزاب، عدد22 ،(4/ 3/ 1927).

56-محمد الطيب العلوي، محمد بن العايد الجيلالي العربي ، مجلة الثقافة عدد 7، 8 مارس 1995 م.
57- محمد العيد آل خليفة، التربية المدرسية وأثرها في المجتمع، مجلة البصائر، عدد 2، جانفي 1936.

58- محمد صالح الجابري، المؤرخ الجزائري مبارك الميلي في الصحافة التونسية ، مجلة الثقافة الجزائرية عدد 102 (1989).
59- محمد السعيد الزاهري، العربية والنواب، جريدة البرق، عدد 18 (11 - 7 - 1927 م).
60- معمر ابن عزوز ، حالة المرأة ، جريدة كوكب أفريقيا، عدد187، (2-12-1910).
61- مليكة بن عامر، المرأة الجزائرية بين الحاضر و المستقبل ،جريدة البصائر عدد (20 ماي 1955).

62- ميلود نايت بلقاسم، العربية في التعليم العام و العالي و أساليب النهوض بها في الجزائر، مجلة الثقافة، عدد101، 1988.
63- مبارك الميلي، تعليم المرأة الكتابة ،مجلة الشهاب ج6 م 12.

64-المنجي الشملي ، قضية المرأة في تفسير المنار، حوليات الجامعة التونسية.

65-يمينة شيكو ، مشكلة التقدم في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير مخطوطة جامعية ، الجزائر.

فهرس الموضوعات.

مقدمة 2

المحاضرة الأولى :أعلام النهضة في العالم العربي الإسلامي..... 5

المحاضرة الثانية: أسباب تخلف العالم العربي الإسلامي وهاجس النهوض لدى زعماء الإصلاح..... 10

المحاضرة الثالثة: مقومات النهوض عند رواد النهضة الجزائريين..... 23

المحاضرة الرابعة: الإصلاح الديني..... 29

المحاضرة الخامسة: الدعوة إلى التجديد ومحاربة الجمود..... 31

المحاضرة السادسة: التصوف والطرقية..... 34

المحاضرة السابعة: مآخذ العلماء على الطرقيين..... 41

المحاضرة الثامنة: مكانة اللغة العربية عند زعماء الإصلاح في الجزائر..... 52

المحاضرة التاسعة: محنة اللغة العربية إبّان الحقبة الاستعمارية..... 55

المحاضرة العاشرة: التربية والتعليم 62

المحاضرة الحادية عشرة: التربية أساس التعليم..... 67

المحاضرة الثانية عشرة: التربية الوطنية والدينية: 78

المحاضرة الثالثة عشرة: في سبيل تعليم أصلي ومعاصر..... 85

المحاضرة الرابعة عشرة: أساليب فرنسا في القضاء على الذاكرة التاريخية للجزائريين واهتمام العلماء بالتاريخ الوطني. 105

المحاضرة الخامسة عشرة: موقف العلماء الجزائريين من دعاة التجنيس..... 114
المحاضرة السادسة عشرة: قضية المرأة الجزائرية في الخطاب النهضوي الجزائري..... 127
المحاضرة السابعة عشرة: ترقية المرأة الجزائرية..... 132
المحاضرة الثامنة عشرة: مقاومة دعاة السفور و أدعياؤه..... 138
المحاضرة التاسعة عشرة: تعليم المرأة الجزائرية..... 147
المحاضرة العشرون: معالجة مشاكل المرأة الاجتماعية..... 154
قائمة المصادر و المراجع..... 162
فهرس الموضوعات